الفصل الأول

مضامين الفكر الحضارى فى الإسلام

(مضامين الحضارة الإسلامية)

المبحث الأول : قضية الحضارة والمضمون.

المبحث الثانى : المسلمون والحضارة.

المبحث الثالث : تطور الحضارة الإسلامية.

المبحث الرابع : الحضارة الإسلامية فى عقول السلف.

المبحث الخامس : ركائز أساسية للحضارة الإسلامية.

المبحث السادس: خصائص إسلامية قامت عليها الحضارة.

المبحث السابع : طبيعة الحضارة الإسلامية، ومبادئها التى بنيت عليها.

المبحث الثامن : مسلمات فى حضارة هذا الدين.

المبحث التاسع : واجب المسلمين نحو حضارتهم.

مضامين الحضارة الإسلامية

المبحث الأول: قضية الحضارة والمضمون

تناول قضية الحضارة هو تجسيد لأهم قضايا العصر، والحضارة – فى تصورنا- نظام حياة يحمل قيمًا وسلوكًا ومبادئ، ويقوم على ثوابت ومنطلقات، وينتظم المجتمع بقدرة أفراده على العطاء والعمل والتطور والتقدم والإنجاز، وبقدرتهم على الحفاظ على ما أنجزه السابقون واللاحقون.

والحضارة – كذلك- هى خلاصة جهود البشرية؛ نتج عنها تراث روحى وعقلى وخلقى، وهى تجسيد صادق للنشاط العقلى عند الإنسان، وتاريخ الحضارة سجل لتطور إنجازات هذا العقل، وفاعليته فى شتى مجالات الحياة، وما حفلت به من منجزات.

وثمّ جانب تكنولوجى ومادى وخِدمى فى دراسة قضية الحضارة، وجانب آخر علمى وقيمى وأخلاقى لا ينبغى أن ينفصم عن الجانب الأول. وتكتسب الحضارات ثبوتها وخلودها بعنايتها بالجانب المعنوى، وعدم تغليب الجانب المادى عليه.. وبالتفاعل الطبيعى بين الإنسان والكون والحياة.

ونؤكد بداية أن الحضارة الإسلامية تميزت عن غيرها هادفة؛ تقوم على الإيمان بالله تعالى والارتقاء الروحى والقيمى والخلقى والإنسانى؛ فضلاً عن كونها حضارة شاملة لجميع الميادين الحياتية كما أنها حضارة متوازنة فى كل نواحيها، مستمدة لأصولها من القرآن الكريم.

والحديث عن الحضارة الإسلامية إنما هو حديث عما وضعه الإسلام من أسس للعقيدة الصحيحة والأخلاق القويمة، ونظم الحياة الفردية والجماعية، وما أنتجته البيئات الإسلامية من أدب وفن وفلسفة وعلوم، وما توصل إليه العلماء من نظريات، وما أبدعوه من مخترعات، وما زخر به الإسلام من روحانية عالية، ومثل عليا، وإيمان بالقوى الغيبية.

والحضارة الإسلامية هى حضارة عقيدة؛ تتمثل فى عقيدة التوحيد والإيمان بالخالق سبحانه؛ لذا فسمو مصدر التنزيل جعل هذه الحضارة متميزة، إذ جاءت من لدن حكيم خبير، متضمنة منهج حياة وسلوك والتزام قويم.

ولأنها كذلك فمن الطبيعى أن تكون أكثر ثبوتًا وخلودًا؛ لأنها ليست من صنع بشر، لهم أهواؤهم وتقلباتهم وتأثراتهم وميولهم. كما أن هدفها نبيل وعظيم؛ فهى فضلاً عن كونها تقوم على جانب أخلاقى، ولا تستهدف ترويع الآمنين، ولا إلحاق الضرر بالآخرين، بل مد يد العون للجميع؛ فهى حضارة تعمير واستخلاف فى الأرض ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩] .

وليس الجانب الأخلاقى والعمرانى هما الأساس فقط؛ بل هناك الجانب الإنسانى المتميز فى هذه الحضارة فالإنسان رفع قدره، وكرمه وآتاه مفاتيح الاستخلاف فى الأرض، ووهبه ملكات التفاعل والاستجابة والتطور، ومن ثم فإن الإنسان المسلم عليه دور عظيم فى الحفاظ على حضارته الإسلامية والقيام بواجباتها بأداء ما يستلزمه كونه خليفة لله فى أرضه، وكونه مسئولا عن تبليغ دين الله، وكونه يحمل أمانة عظيمة ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢].

بل وكلفه الله باستعمار الأرض، وسخر له الطبيعة وما فيها، وهيأ له السُّبُل لتسخير كل طاقاته فى تمهيد ما خلقه لخدمة الإنسانية، فى إطار غاية دينية وقيمية وخلقية شاملة تصان فيها حرمة المرء والمجتمع ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢] .

والإشارة السابقة للجانب الإنسانى فى حضارة الإسلام، تجعلنا فى حاجة لأن نعود فنُحدث نوعًا من التفريق بين أمرين: فالإسلام إطار متكامل للحياة هبط الوحى على رسول الإسلام ﷺ بقرآن عظيم، يجسد هذا الإطار، ثم كانت التطبيقات النبوية والتوجيهات الكريمة تدور فى نفس هذا الإطار، وتوضح ما غمض منه؛ فى ضوء تلاق بين عنصرى الهداية: القرآن والسّنة، هذا عن الإسلام من حيث كونه دينًا وهداية وتشريعًا.

ثم يأتى الجانب الحضارى للإسلام وهو لن ينفصم عن الإسلام كدين، ولكنه يدخل فى إطار مقومات هذا الدين، وعناصر الهداية فيه، وما قام به السلف من إرساء للجوانب الثرية فى هذا الدين وكذلك الجانب العمرانى، والجانب القيمى، والجانب المتصل بالقدوة، وبناء الشخصية المسلمة، فالحضارة الإسلامية هى رد فعل وأثر لتوجيهات الإسلام وتوجهاته الإنسانية والأخلاقية والقيمية، وهى بواعث العمل

والجهاد فى الإسلام، فضلاً عن تمثلها للمضامين الإسلامية فى عنصرى الهداية وروافدهما.

وتفريقنا المتقدم بين الإسلام كدين، وبين الحضارة الإسلامية آت من أن الأول نظام كامل لا تشوبه شائبة، وعندما نأخذ به فى حياتنا يهدينا الله تعالى للتى هى أقوم، وهذا النظام به كل عناصر التحضر والابتعاث كما أشرنا، وعندما نقترب من الدين ونعمل به ونجاهد لأجله ونحيا فى نوره نكون قد جسدنا هذا الجانب الحضارى السلوكى العلمى فى الإسلام. فلا يصح أن نكون مسلمين وتغيب عنا منطلقات التحضر الإسلامى، ونبتعد عن جوهر الحضارة الإسلامية وذلك عندما ننتسب – فقط – للإسلام، ولا ينالنا منه إلا أننا مسلمون بالاسم لا بالعمل والسلوك والحركة.

ونؤكد هنا أن الحضارة الإسلامية الصحيحة هى التى تقوم على النسق التكاملى للإسلام على النحو الذى ذكرنا؛ وعندما يساء فهم الإسلام فقد تأتى نواتج العمل مخالفة لتعاليمه، والإسلام بالطبع لا يتحمل أخطاء أتباعه – مُتبعيه – ومن هنا فقد حرصنا على التفريق بين الإسلام والحضارة الإسلامية[1]، ولكننا عندما نشير فيما سيأتى إلى مصطلح (الحضارة الإسلامية) فإننا نعنى الحضارة المتصلة بالفهم الرشيد والصحيح للإسلام كما أراده الله تعالى، وكما دعا إليه رسوله الكريم ﷺ وعمل به، ثم سار على هديه أصحابه وأتباعه. فضلاً عن الجانب العمرانى والتاريخى والتراثى والعلمى والفكرى الذى خلده السلف، وصار داخلاً فى نطاق الحضارة الإسلامية، قامت فى ضوء دين قويم فإن هذا أكسبها تميزًا وتفردًا، فبصفة عامة لا يشك أحد فى أن للدين أثره العظيم فى صنع الحضارات، وفى رسم النهج الصحيح لواجبات الاستخلاف فى الأرض، فحين تكون هذه الخلافة لله تعالى على عهد الله تعالى وشرطه، وحينما يقوم المرء بواجبات حياته؛ عملاً وحركة وإنتاجًا وبناءً وسلوكًا، وحينما يفجر ينابيع الرزق، ويقيم الصناعات، ويُعمر الأرض، عندما يفعل كل ذلك على أنه عبادة لله تعالى وطاعة له سبحانه، واستجابة لأوامره، وقيام بماهيات الاستخلاف يكون قد بلغ ذروة الحضارة وقمتها وأقصاها.

---

(١) يشار فى ذلك إلى أن أخطاء التطبيق والظروف الصعبة كانت وراء التخلف التاريخى فى مراحل متعددة وقعت بها الأمة الإسلامية، وأن ذلك كله كان وراء سوء فهم للإسلام أو مخالفات صريحة له.

ويصل المرء لقناعة بأن الحضارة تنبعث بالعقيدة الدينية؛ ولذا فإن البحث فى أى حضارة إنما يكون عن أصلها الدينى؛ الذى أتى من السماء عن طريق الوحى، والذى يكون شرعة ومنهاجًا، وتقوم أسسه على توجيه الناس نحو إله عظيم خالق. فالعقيدة هى أساس قوة الفرد وقوة المجتمع، وهى السياج الواقى للأمة، وهى القوة المحركة لها، وهى المثال الذى يحفز إلى الحركة والتقدم، وهى العروة الوثقى التى تربط المسلمين، فالعقيدة بما تتضمنه من إيمان بالله، واستجابة لأوامره سبحانه تكتسب قدسية ومصداقية وبما تستحثه فينا من عمل صالح وهداية، بكل ذلك يتحقق الإرث الطبيعى للأرض ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وثمة أمور نؤكد عليها بشأن العقيدة؛ فوحدة العقيدة من أهم ركائز وحدة المسلمين، وتكامل قوتهم فعقيدة المسلمين واحدة، لا تختلف باختلاف جنس أو لون أو مصر أو جيل. ودعائم هذه العقيدة ثابتة، ومصدرها معلوم، وهو القرآن الكريم وآيات العقيدة له.

وبهذه العقيدة تجتمع قلوب المسلمين، وبها تكتمل رابطتهم، وهى أقوى عوامل نهضتهم وتقدمهم ووحدتهم؛ فالمؤمن حينما يستشعر قرابته من كل المسلمين واجتماعه معهم على أصل واحد، يجمعه وإخوانه المؤمنين فى مشارق الأرض ومغاربها، فإن ذلك يُشعره بالانتماء إلى عقيدته التى يحيا بها معهم، وتلفهم جميعًا رابطة هى رابطة العقيدة.

المبحث الثانى: المسلمون والحضارة

يحق لنا أن نقرر أن ظهور الإسلام كان إيذانًا بظهور حياة راقية؛ تخلص فيها البشر من شوائب الجاهلية ورذائلها، وأنارت أمامهم سبل الرخاء والسعادة، وأعلت من قيمة العمل، وارتكزت على أساس أخلاقى صحيح وفضائل حميدة، وكرمت الإنسان، وجمعت بين المادة والروح، وبين الدنيا والآخرة.

والقرآن الكريم ناطق بما تقدم، كما أكدته ممارسات العرب والمسلمين، الذين أشرقت بلادهم وما فتحوه حضارة ورقيًا وتقدمًا وعمرانا وتعليمًا؛ بفضل دينهم. وفى القرون التى كان فيها العرب المسلمون لهم إنتاجهم العلمى والأدبى، وكانت لهم

نهضتهم وحياتهم الفكرية، ويأخذون من الحياة بحظ وافر، ويقيمون حضارة راقية، كان الغربيون – آنذاك – يعيشون فى جاهلية وهمجية ولا يعرفون الإدارة ولا الأمن ولا السياسة.

فالعرب المسلمون هم الذين مدنوا البربر فى المغرب، وأوقدوا مشاعل النور فى الأندلس، وأقاموا فى بلادهم أعظم حضارة، وقد شهد علماء الغرب بفضل المسلمين على الحضارة الغربية[1] ولا نعدم – رغم ذلك – أن نجد أقلامًا غربية أخرى متعصبة، تنكر ذلك وتجحد فضل العرب المسلمين وحضاراتهم.

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

رغم أنه من المقررات والثوابت فى هذا الصدد أن الغرب أقبل بنهم على امتلاك رصيد الحضارة الإسلامية من العلوم الطبيعية، وعلوم التمدن المدنى، وعلوم المادة. كما أخذوا عن علمائنا وحضارتنا المنهج التجريبى « أما فيما هو خصوصية حضارية عربية إسلامية؛ مما يتصل بالإنسانيات الإسلامية سياسة واجتماعًا واقتصادًا وفلسفة وأنماطًا قيمية وسلوكية وذوقية.. إلخ. فكل ذلك تحفظ عليه الغرب الناهض، وذلك حتى يكون انفتاحه على حضارتنا كافلاً إضافة مصادر القوة، وحافظًا على خصوصيته وبصمته وهويته»[2] .. حيث رفضوا أبرز خصائص الحضارة الإسلامية فى التوحيد والتدين والوسطية.. إلخ. ورفضوا الطابع الدينى للدولة، وحاكمية الله، وأخلاق الغايات، وفى مقابل كل ما تقدم كانت بدائلهم التى ميزت حضاراتهم بالثنائية والنفعية والليبرالية، والاهتمام باللذة والشهوة، وجعل السيادة للعلمانية اللادينية.

---

(١) انظر فى ذلك دراسة (لوثرب مستودارد)عن (حاضر العالم الإسلامى)، ودراسى (جوستاف لوبون) عن (حضارة العرب) وكذلك دراسة (كرد على) عن (الإسلام والحضارة الغربية) وفى هذا الصدد تقول الكاتبة الألمانية (سيجريد هونكة) فى كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) " يبدو أن الأوان حان بالنسبة للغرب، كى يتحدث بكل صدق وإخلاص عن العرب، هذا الشعب الذى أثر بكل عمق فى مجرى الأحداث العالمية والذى يدين له الغرب والإنسانية جمعاء بالشىء الكثير".

(٢) محمد عمارة فى التقاء الحضارات، جدة، مجلة المنهل (تصدر عن دار المنهل للصحافة والنشر، العدد ٤٩٥، ذو القعدة ١٤١٢ هـ، ص ٦٠.

المبحث الثالث: تطور الحضارة الإسلامية

وكانت الحضارات المعاصرة للإسلام – عندما جاء – قد بلغت غايتها فى الانحراف، ودخلت مرحلة السقوط والتردى؛ ولذلك فإنها سرعان ما تهاوت وانتهت ولم تخلف وراءها إلا ما تخلفه الحضارات عادة فى مجال المدنية والعمران. وفى جانب (المدنية) نجد أن الحضارات السابقة قد تركت بصماتها وآثارها فى المنطقة الواقعة بين وادى الرافدين ووادى النيل.

ففى جانب (الثقافة) فى مرحلة تالية استقدم المسلمون المعطيات المادية لدى حضارة اليونان والرومان والفرس، ثم طوروها، وأضافوا إليها الإطار الفكرى والعقائدى والثقافى، «الذى يقوم على: الإيمان بالله الواحد الأوحد، وتحرير العقل البشرى، والنفس البشرية من الوثنية، وتحرير الإنسان من العبودية وقيام الوحدة الإنسانية العالمية؛ فضلاً عن الجوانب الأخلاقية الأخرى»[1] .

والذى نرصده فى التصور الحضارى فى الإسلام أن حركة المدنية والعمران لا تتم إلا فى إطار عقائدى أخلاقى، وأن تكون موجهة بالحق للناس جميعًا على أساس العدل والرحمة والإخاء والمساواة، ومن هنا تسقط الحضارات بهيكلها المادى ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ [الرعد: ١٧]. وتقوى الحضارات وتثبت وتدوم بهيكلها الدينى المتكامل ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧].

ولا نستطيع أن نغفل ما ورثته الحضارة الإسلامية، أو نغض الطرف عما نقلته من منجزات الحضارات البشرية المجاورة، وإنما نقرر أن مزيجًا متآلفًا جاء من نتاج هذا الإرث وذلك النقل، وهو قيام حضارة ذات مضمون مدنى متقدم فى إطار دينى أخوى. ثم أضاف المسلمون إلى تلك الحضارات، وزادوا عليها، بعدما تمثلوها وهضموها واستوعبوها، ثم أنشأوا هذا المزيج، الذى يجمع بين الجانب المادى والجانب الروحى الدينى، وكان نتاج ذلك فى العلوم والمعطيات؛ بعدما حرروها من الزيف والضلال، وارتفعوا بها عن قيم الظلم والفساد والإفساد والإباحية، وجعلوها ربانية الطابع،

(١) أنور الجندى: عالمية الإسلام، سلسلة اقرأ، القاهرة، دار المعارف، العدد ٤٢٦، ١٩٧٧، ص ٩٨.

إنسانية العطاء، دينية النزعة. فكان عطاؤهم الوفير لكل البلدان التى فتحوها؛ فكانت بمثابة قلاع للحضارة والتمدن. وكان للمسلمين الحظ الأوفر فى صنع تلك الحضارة، وأفرغوها فى قالب متجانس، مطبوع بطابع عظمتهم، ورموز دينهم.

ثم دخلت الحضارة الإسلامية فى صراع مع حضارات غازية كثيرة، أرادت أن تقتلع الأمة من جذورها وحرّكتها مفاهيم عنصرية وعدائية، ومن ذلك المغول والصليبيين، ورغم ما خلفته هذه الغزوات من جراح إلا أنها لم تستطع أن تفك العرى أو تقتلع الجذور، أو تمحو الهوية، أو تطمس المعالم.

ورغم التحديات التى واجهت حضارتنا، إلا أنها استطاعت الرفض والمقاومة أحيانًا والقبول والاستجابة أحيانًا أخرى، ويحسن بنا أن نقرر أن شراسة التحديات أوجبت على المسلمين فهم دينهم، والثبات للتحدى، وعدم الانخداع ثم الانخلاع.

وعندما نهضت أوربا – حديثًا- فكريًا وسياسيًا واقتصاديًا كان ذلك حدثًا تطوريًا مفاجئًا، إذ أضحى الغرب فى القرن الماضى والحاضر – وبإرهاصات قبلهما – هو المسيطر على العالم بأساطيله وأسلحته، ثم باستعماره وسطوته على البلدان، ومنها بلاد العالم الإسلامى؛ فامتزج الغزو العسكرى والتقنى بغزو فكرى وعنصرى؛ فهجمت العاصفة العسكرية ومعها عاصفة فكرية أخرى، وجاست خلال الديار، وأخذت ترى داخل الجسد والعقل المسلّمين، فقد بديا تائهين وضعيفين، ووجد المسلمون أنفسهم إزاء هذا المد الحضارى فى موقفين:-

إما الاستسلام والخضوع والتقليد الأعمى، وإما المعاداة والخصام والرفض، وهذان الموقفان المتناقضان برز لهما دعاة وأصحاب رأى، لهم ميولهم ووجهتهم وأدلتهم، التى اتسمت بالخضوع والإيمان بالغرب لدى الأول، والثورة والرفض.. والإيمان بالإسلام لدى الثانى.

والحق أن أصحاب الموقف الأول هم بلاشك أصحاب فكر قاصر، وعقلية غير واعية، وضيقة الأفق وهم ينساقون تحت الحضارة الغربية، متغافلين حقائق تاريخية واجتماعية وحضارية كثيرة، فهم يؤمنون بأن الغرب هو السيد، وهو الأستاذ، وهو المتفوق فى كل المجالات الصناعية والإدارية والثقافية والأدبية والاجتماعية والسياسية والتطبيقية.

وكان حظ هؤلاء أن رضوا بفتات الموائد، وتطلعوا إلى نتاج الغرب، وشخصت أبصارهم إليه، وتعلقت قلوبهم به، فخسروا منبع قوتهم ودينهم، وكان التقليد والمحاكاة والاستسلام والانقياد ديدنهم وسبيلهم، والتبعية والذوبان نهايتهم.

وفى المقابل وجدنا أصحاب الموقف الثانى؛ الذين تركزت جهودهم فى محاربة الغزو الفكرى والسياسى، وكرهوا كل ما أتى به، إذ رأوا فيه الاحتلال لوطنهم، والاغتصاب لأملاكهم والنهب لتراثهم الإسلامى.

وهؤلاء – رغم موقفهم الحماسى السابق – « إلا أنهم أغفلوا التفريق بين ما يؤخذ وما يرد، ولم يحاولوا معرفة عدوهم، والتطلع لأسراره، وجوانب القوة والضعف، ولم يفرقوا بين ما يتفوق فيه علينا من علوم وصناعة وغير ذلك، وما يفتقره من أهداف كريمة، وعقائد سلمية، وغايات نبيلة (فهو رفض مطلق)»[1] .

وهكذا انضم الأول إلى خضم الأفكار الغربية وتياراتها، وأما الثانى فقد حاول الإفلات منه، ورفضه كله بما يعنى العزلة عنه.

وهنا نجد تفاوتًا بينهما بين الاستسلام والرفض، وبين الخضوع والتصلد، وبين الانقياد والتصدى بين الموقفين، اللذين يبدوان متناقضين.

بيد أن هناك موفقًا وسطيًا بينهما؛ له دعاته كذلك، وله مؤيدوه، وهم يقفون موقف المتأمل الدارس، الذى لا ينكر الغرب برمته، ولا يقبله على علاته، ولا يخلط بين ما أنتجه من وسائل لإسعاد هذه الحياة، وما اخترعه من مذاهب باطلة وثقافات سخيفة، آداب مبيدة للدين والأخلاق وللمبادئ الإنسانية الكريمة والصفات النبيلة.

وأصحاب هذا الموقف الوسطى لا يستسلمون ولا يندمجون، ولا يواجهون الضغط السياسى والاستعمارى فحسب، بل يحاربون روح الجشع والأنانية وعبادة الشهوات، كما أنهم يستفيدون من أدواته ومعلوماته وعلومه وصناعاته، التى لا يحتكرها شعب، ولا تختص بها أمة، بل هى نتاج حضارى متاح، يمكن الإفادة منه فى نواحى التقنية والتنمية.

---

(١) محمد الحسينى: الإسلام الممتحن، القاهرة، المختار الإسلامى، ١٩٧٧، ص ٥١.

وبذا فإنهم لا يعتبرون الغرب عدوًا لدودًا لهم، فلا يحقدون عليه، ولا يخشعون لما يأتى به، ولا يطأطئون له الرأس، بل يقبلون ويرفضون، ويناقشون ويقتنعون ويُقنعون، إنهم يأخذون من علومه وصناعاته، التى لا تضر الإنسان كثيرًا إذا لم ينلها أو يُحصلها، ولكنهم يرفضون استخدامه لهذه القوة الضاغطة، وهذا العلم فى التأثير على الجوانب الأخلاقية والقيمية لدى الشعوب الناقلة.

ويبقى أن نقرر أن المسلمين لا يقبلون – ولا ينبغى لهم ذلك – تغريب الحضارة، بحجة غلبة الغرب وسلطانه فى العصر الحديث.. ففى تصورنا ويقيننا أن هذا الغلب المادى والتقدم التقنى هو مرحلة مؤقتة لن تستمر، فهى – أى الحضارة الغربية – لا تستمد كينونتها من الحق، فضلاً عن كونها تخالف الفطرة، وتعارض سنن الكون؛ ولذا فلن تلبث أن تسقط، بعد أن تهتز أركانها، وتخور قواها. ونضيف لما تقدم أن الحضارات الإنسانية لا تقاس بالتقدم المادى والعسكرى والحربى، وإنما تقاس بما تضيفه إلى البشرية من قيم التقدم والرقى، وبذا فإن الحضارة الإسلامية لم يستطع الاستعمار – الذى احتل كثيرًا من البلاد الإسلامية أن يذيب هذه الحضارة، أو يقتلعها، أو يغيرها[1] .

بيد أننا لا نغفل انجذاب كثير من المسلمين إلى فلك الحضارة الغربية، نتيجة تعلقهم التاريخى بها ووقوعهم تحت سيطرتها. ولسنا فى حاجة للتأكيد أننا أمة مستقلة، لها حضارتها وذاتيتها وإدارتها وجوهر دينها، وأن مرحلة التحرر من رق التعلق والاستعباد الفكريين ينبغى أن يتزامن معها اقتناع بقوة جذور حضارتنا الإلهية، وضرورة الاعتصام بأصولنا وروافد حضارتنا ومنطلقاتنا.

المبحث الرابع: الحضارة الإسلامية فى عقول السلف

لا نحتاج إلى كثير أدلة للتأكيد على أن المسلمين الأوائل الذين صنعوا حضارة عظيمة فى بلادهم فى ضوء دينهم العظيم، والذين شاركوا بجد وفير بنّاء فى إقامة

(١) ربما يتساءل البعض عن ظواهر الطمس للحضارة الإسلامية فى تركيا وفلسطين، ونؤكد أن تركيا تسير فى طريق العودة إلى أحضان أمتها الإسلامية، وثَم ما يدلل على ذلك تيارات الصحوة الإسلامية والعودة للجذور ومواجهة التحديات الثقافية من العالم الغربى، ونجد الفلسطينيين– رغم قسوة المحنة – إلا أن الصهاينة لم يستطيعوا تهويد أرضهم أو إذابتهم أو اقتلاع كيانهم، وإنما يبقى المد الإسلامى والتمسك بالدين هو طريق الخلاص والتحصين والصمود والمواجهة.

حضارات أخرى مجاورة كانوا قد استوعبوا مضامين البناء والتواصل فى الإسلام، وأيقنوا بأهمية العطاء والبذل فى هذا الدين، فقد أيقنوا أنهم صناع حضارة، وأنهم جند الله، وحملة رسالته.

ويمكن لنا أن نتلمس الجانب الحضارى فى فهم المسلمين أنفسهم لعوامل الدفع والتقدم فى دينهم من نماذج فريدة؛ نلتقى بها فى كتب التراث؛ معبرة عن نصاعة فهمهم، وقوة بصيرتهم ووضوح رؤيتهم، وإيمانهم برسالتهم، وفاعلية دينهم فى التحرير والهداية وحسن التوجه، من هؤلاء ربعى بن عامر ﷺ عندما سأله رستم الفارسى عن دوافع الفتح والمجىء لفارس فقال: «جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة».

إنه فهم عميق لفاعلية الرسالة فى حياة الناس، وإخراجهم من عبادة العباد من الأكاسرة، ومن تسلطهم إلى رحابة الإسلام، حيث التوجه للإله العظيم الخالق، وإخراجهم من حياة الظلم والتمييز والطبقات إلى حياة الحق والعدل والإسلام، ومن غلبة الدنيا وسطوتها عليهم وتحكمها فى سلوكهم إلى آفاق أرحب وأوسع حيث تتلاقى الدنيا والآخرة، والدين والدنيا فى سبيل واحد هو طاعة الله والاستجابة لأوامره ثم الفوز بنعيم الآخرة.

بمثل هذا الفهم يكون الدفع الحضارى والإيمان الوثيق بأن الإسلام ليس طقوسًا يؤديها أتباعه إنما هو رسالة متكاملة، لها تبعاتها وتأثيرها فى سلوك المسلمين، عندما تمثلوا روح الإسلام التى جسدها صحابة رسول الله ﷺ، الذين كانوا جنودًا – حقًا – لله، وطلاباً للآخرة وقد وصفهم رُسل المقوقس – عظيم مصر – بهذه الكلمات الذهبية التى نلمح من خلالها سلوكهم العبادى والانقيادى والحضارى فى حياتهم: «رأينا قومًا الموت إلى أحدهم أحب من الحياة، التواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة، وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم.. ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد من العبد.. وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد؛ يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم».

بهذا السلوك المتكامل والفهم الرشيد وحب الموت والجهاد وتمثل القيم الإسلامية، والتواضع والمساواة والعدل، وطاعة الله تعالى كانت حياتهم، وبهذا السلوك بنوا حضارتهم وأقاموا دولتهم.

وفى هذا الصدد يمكن رصد نماذج أخرى؛ تبعث روح العمل، ولا تميل إلى الرفاهية التى تقلل من كفاءة المسلم وتجعله غير قادر على تحمل المشاق، وعلى القيام بواجبات عمارة الكون، وتكبد التبعات الثقال.. ونلمح الفهم السابق فى قول الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ لأحد عماله ببلاد العجم « إياكم والتنعم وزى العجم، وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب، واخشوشنوا، وأعطوا الركب أسنتها، وارموا الأغراض».

ونماذج أخرى، تبعث روح الإيثار والتواضع وإنكار الذات، وإقدار الأمانة والمسئولية والقيادة، واستهداف وجه الله من كل ذلك، دون رغبة فى عزة أو سيطرة أو تمتع بمال أو سلطان ونلمح هذه الروح فى قول أبى عبيدة بن الجراح ﷺ فى تواضع القائد المؤمن[1] : « ما لسلطان الدنيا أبحث، وما للدنيا أعمل، وإن كل ما حولنا سيصير إلى زوال وانقطاع إنما نحن إخوان نتبع أمر الله عز وجل، وما يضر رجل أن يلى [أى الإمارة] عليه أخوه فى دينه أو فى دنياه.. وإن الوالى (القائد) يكاد يكون أقرب الناس إلى الوقوع فى الفتنة وأدناهم إلى الخطيئة لما يتعرض له من الغواية، إلا من عصمه الله عز وجل، وهم فى الناس قليل».

وفى ميدان القتال؛ نرى إيمانهم بنصر الله تعالى؛ رغم قلة عددهم، وكثرة عدوهم، ففى غزوة مؤتة، نشاهد عبد الله بن رواحة ﷺ – ثالث الأمراء – ينهض وسط الصفوف؛ بعد أن انزعج المسلمون من كثرة جيش الروم، وقلة عددهم، فإذا به يقول [يا قوم.. إنا والله، ما نقاتل أعداءنا بعدد، ولا قوة، ولا كثرة.. ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة].

بل إن خالد بن الوليد ﷺ المقاتل المجاهد، الذى لا ينام ولا يترك أحدًا ينام، نجده باكيًا حزينًا على فراش الموت؛ لأنه كان يطلب الشهادة ويتمنى الموت فى سبيل الله ونُصرة دينه، فإذا بالبطل يموت على فراشه، ولنستمع إلى كلماته النورانية [لقد شهدت كذا، وكذا زحفًا، وما فى جسدى موضع إلا فيه ضربة سيف، أو طعنة رمح، أو رمية سهم ثم ها أنذا أموت على فراشى حَتْفَ أنفى كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء».

---

(١) قالها أبو عبيدة عندما كتب إليه عمر بن الخطاب ﷺ لتعيينه واليًا على المسلمين بدلاً من خالد بن الوليد ﷺ .. ولما كانت الحرب دائرة رحاها بين المسلمين وأعدائهم من الروم، فقد تكتم أبو عبيدة الخبر، حتى وضعت الحرب أوزارها. وعندما علم خالد بالأمر ذهب إلى أبى عبيدة، وعتب عليه ذلك، فكان رد أبى عبيدة موضحاً سبب ذلك، بتواضع ورفعه وتقديم للمصلحة العامة للمسلمين.

والحكمة الحقة والفهم الرشيد والاعتدال والقناعة وفهم حقيقة الدنيا نجده فى قول أبى الدرداء ﷺ « ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يعظم حلمك، ويكثر علمك، وأن تبارى الناس فى عبادة الله تعالى» ثم يقول « التمسوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يستر عوراتكم، ويُؤمن روعاتكم»، وبحكمة بالغة يقول «لا تكلفوا الناس ما لم يُكلفوا، ولا تحاسبوهم دون ربهم، عليكم أنفسكم فإن من تتبع ما يرى فى الناس يَطُلْ حزنه».

ونقفز للأمام لنجد المحاسبى – رحمه الله – يذكر لنا مقدمة كتابه (الوصايا) سمات المسلمين العاملين ومدى فقههم وفهمهم وسموهم، ولأهمية هذا النص فإننا نسوقه، ملتمسين هذه الصفات الفريدة لمسلمى هذه الأمة «.. فقيض لى الرءوف بعباده، قومًا وجدت فيهم دلائل التقوى، وأعلام الورع وإيثار الآخرة على الدنيا، ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل الهدى، ووجدتهم مجتمعين على نصح هذه الأمة. يرضون أبداً بالصبر على البأساء والضراء فى القضاء، والشكر على النعماء، يحببون الله إلى العباد، بذكرهم أياديه وإحسانه، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى، علماء بعظمة الله تعالى وعظيم قدرته، وعلماء بكتابه وسننه؛ فقهاء فى دينه، علماء بما يحب ويكره، ورعين عن البدع والأهواء، مبغضين للجدال والمراء، مخالفين لأهوائهم، مالكين لجوارحهم، مجانبين للشبهات، تاركين للشهوات، مشفقين من الحساب، وجلين من المعاد، مشغولين بشئونهم، علماء بأمر الآخرة، وأهاويل القيامة، وجزيل الثواب، وأليم العقاب، ذلك أورثهم الحزن الدائم، والهم المضنى؛ فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها..».

بمثل هذه النماذج الفريدة ودلائل الحكمة؛ وبهذا الإيمان الواسع العميق والاهتداء بالتعاليم النبوية المتقنة نرى عظمة تأثير هذا الدين، الذى عمد إلى أمة عربية ضائعة فجعل منها نوابغ وعجائب للدهر وصناعًا للتاريخ، وأفرزوا مواهب وقوى صبغت العالم بنور جديد، امتدت روافده وملأت كل ثغر، برجال عظام – فهموا حقيقة هذا الدين وطبقوه – جمعوا بين الكفاية والديانة، والقوة والأمانة، والعدل والرحمة، فكان منهم الأمير العادل، والقاضى المقسط، والخازن الأمين، والوالى المتورع، والجندى التقى، والعالم العامل.

المبحث الخامس: ركائز أساسية للحضارة الإسلامية

ثمة ركائز وأسس قامت عليها الحضارة الإسلامية، ونلمحها فى مضامين هذا الدين، ويمكن رصد هذه الركائز فيما يلى: الربانية، الإخاء، الشمول، المنهجية العلمية[1] والتطبيق.

* **فالربانية**: هى صلة الإنسان بربه، من خلال العبادات التى فرضها الله، وهى كلها تحقيق للربانية «ولكون الشريعة اتسمت بالربانية وبأن الله هو مصدرها فهى مبرأة من كل نقص، لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا بينت حكمها، وجاءت خالية من كل جور وهوى، ولا تفرق بين الناس لمنصب أو جاه؛ ولذا اكتسبت أحكامها هيبة واحترامًا فى نفوس المؤمنين بها حكاماً كانوا أو محكومين دون قسر لهم أو كُره لهم»[2].

* **والإخاء**: يتحقق بصوره المتعددة فى المساواة فى الحج، ووحدة المكان فى الصلاة والحج، ووحدة الزمان فى الصوم، والإخاء الإسلامى بعامة هو تحقيق لصلة المسلم بأخيه المسلم.

وليس خافيًا أن الإخاء الإسلامى هو الأصل الأصيل فى بناء دولة الإسلام، وقيام الأمة الإسلامية، «ووفق البناء الأخوى بين المهاجرين والأنصار قامت دولة الإسلام، على أساس سليم ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩]. وبفعل الإيثار وتقديم الغير وتقديم حاجات الناس على حاجات النفس تأكدت أخوة الإسلام، والتوادد فى ظل الإيمان»[3].

ولسنا فى حاجة إلى التأكيد على أن الأخوة فى الإسلام قاعدة لسلوك المسلمين وعلاقاتهم معًا؛ ولذا فهى فوق كل الحواجز الجنسية، والعرقية، والقومية، والحزبية،

---

(١) عبد العزيز كامل: الإسلام والعروبة فى عالم متغير، الكويت، سلسلة (كتاب العربى) رقم ٢٢ يناير ١٩٨٩، ص ١٢٩.

(٢) محمد عبد الغفار شريف: خصائص التشريع الإسلامى، الكويت، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٢٠، ربيع الآخر ١٤١٣ هـ، ص ٤٥ وما بعدها.

(٣) أحمد عبد الرحيم السايح: الإخاء الإسلامى وأثره فى المجتمع، الكويت، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٢٣٦، شعبان ١٤٠٤ هـ، ص ٤٢.

والسياسية، وتقوم على أصول متينة[1] مأخوذة من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذه الأخوة – كما هو واضح – تستمد أصولها من القرآن الكريم، الذى أذكى روح الأخوة الإسلامية، ودعم المحبة بين المسلمين ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الحجرات :١٠].

* **والشمولية**: تتحقق بصلة الإنسان بالكون والبيئة، وهى شمولية تتخطى الواقع المحلى؛ لتنتشر فى واقع عالمى، جاءت فى الرسالة إلى الناس كافة (وسيرد تناول مفصل للشمولية فى الإسلام بعد قليل).

* **وأما المنهجية العلمية**: فتتمثل فى الجمع بين نوريّ الوحى والعقل والتآلف بين أوامر الوحى، وبين اجتهاد العقل المسلم فى مدارسه الفكرية المتعددة، التى جعلت من العقل مادة لفلسفتها.

وما سمى بـ (علم الكلام) هو تحقيق لإعلاء قيمة العقل والتفكير لدى المسلمين (وسيرد تفصيل لهذه الجزيئة فى معالجة تالية).

* **وأما التطبيق**: فتجد صداه فى كون الحضارة الإسلامية ليست مندرجة فى إطار الترف الفكرى أو المثاليات أو الأمانى والطموحات، ولكنها تنفض غبار ذلك فى روح العمل والتطبيق ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [البقرة: ٤٤] ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر: ٧]. ﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣].

فأحكام الشريعة لا تقف عند حد الإقرار النظرى وإنما يتكامل شِقَّاها النظرى والتطبيقى؛ انتقالاً من مرحلة اليقين والتصديق إلى الاستجابة والتطبيق.. فالإيمان لا تستكمل أركانه إلا بأثره الفاعل فى حياة المرء كأن يحب فى الله ويبغض فى الله، ويأمن جاره بوائقه، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ وهكذا ينتقل الإيمان من اليقين إلى التطبيق[2].

---

(١) نفس المرجع السابق: ص ٤٦.

(٢) لمزيد من الإيضاح يُرجع لكتابنا (مؤلفنا): التقوى فى القرآن الكريم – دراسة تفسيرية لغوية إحصائية، طنطا، دار الصحابة للتراث، ١٩٩٠. وذلك فى الفصل الثالث الذى أوضحنا فيه فاعلية الإيمان فى حياة المتقين.

وبديهى أن نقرر أن الإيمان الحقيقى يتحقق بالاقتناع والاتباع معًا، ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور: ٥١].
وتحقق هذه المعانى بالسلوك الفعلى والتطبيق، وهذا ما يجسده قول ابن عمر رضى الله عنهما – ورواه مسلم: «لقد عشنا برهة من الدهر، وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة؛ فيتعلم حلالها وحرامها وأوامرها، وما ينبغى أن يقف عنده منها، لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدرى ما آمره وما زاجره، وما ينبغى أن يقف عنده؛ ينثره نثر الدقل».

ومن أجل تحقيق التلاقى الحقيقى بين الإيمان والتطبيق؛ فإن هذا الأمر يتحقق عندما تزداد علاقتنا بالإسلام كمنهج حياة، بحيث يكون إذعاننا له، وولاؤنا له، ويقيننا به. ثم يكون طبيعيًا أن يهيمن على فكرنا وحركتنا وحياتنا.

وأعود فأقول: إن هذا أمر يخشاه أعداء الإسلام؛ أن تتحول علاقة المسلمين بالإسلام إلى يقين وإلى حركة فاعلة فى حياتهم، ويسيطر على وجدانهم وفكرهم وحركتهم، وبذا تحدث اليقظة المرجوة، ويستعيد المسلمون ذاتيتهم وقوتهم وتفوقهم.

المبحث السادس: خصائص إسلامية قامت عليها الحضارة

المتأمل لخصائص الإسلام – التى تقوم عليها حضارته الروحية والعلمية والبنائية – يجد جمعًا بين نقاء النفس البشرية لخالقها، وحسن توجهها، وبين الارتكاز على قوانين منطقية فى تيسير الحياة والقيام بأعباء الرسالة وتبليغها، وتعهد الله سبحانه بنصر المؤمنين.

ويمكن رصد هذه الخصائص فى: التوحيد، التوازن، الوسطية، فريضة الجهاد، قانون النصر[1] وسنوجز الحديث عن كل خصيصة فيما يلى:-

- **فالتوحيد:** خصيصة تؤكد البناء القيمى فى الإسلام، وتأكيد العلاقة بين العبد وربه، وتحريره من كل القيود والوثنيات، ورفع الإنسان إلى مستوى الاستخلاف فى الأرض، وليس خافيًا أن التوحيد هو ركيزة الإسلام، وسر نجاح دعوة النبى الكريم ﷺ فى اجتثاث الوثنية من جذورها، وترسيخ التوحيد لبناء حضارة إسلامية. وقد صبغ

(١) أنور الجندى: عالمية الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٢.

التوحيد كل نتاج الحضارة الإسلامية التى قامت على أساس من عقيدة التوحيد فى كل البلدان الإسلامية.

- **وأما التوزان**: فتجده واضحًا فى الأخلاقيات الإسلامية؛ التى تقوم على اتقاء كل ما حرم الله تعالى وضبط النفس، وكظم الغيظ، ومراقبة الله وعدم معصيته. كما نجد قاعدة التوازن فى معالجة الإسلام فى مختلف القوى فى الإنسان بين الرغبات والضوابط، وبين الروح والجسد، وبين العقل والقلب، وبين الترف والحرمان؛ فهو لا يقر المادية المغرقة ولا الروحانية المطلقة، ولا يقر الرهبانية المفرطة ولا الانحلال من ربقة الشريعة.

- **وأما الوسطية**: فتمثل فى مظاهر عدة منها أن الإسلام ليس عقيدة مادية؛ تنطبق عليها المقاييس المادية وليس عقيدة روحية؛ تتصل بالرؤى والمعجزات، وإنما الإسلام عقيدة تقوم على المادة والروح معًا.

والوسطية سمة لهذا الدين؛ بُنيت فى ضوئها التشريعات الإسلامية ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقد جعل الله تعالى هذه الأمة فى منزلة وسطى بين المنزلتين، فلا هى إلى الغلو المفرط ولا هى إلى التهاون المفرط. ويمكن لنا أن نرصد مظاهر أخرى للوسطية فى العقيدة الإسلامية الواحدة، وفى العبادات والتيسير فيها، وفى المعاملات وصورها، وفى التدرج فى أحكام الشريعة، وفى السلوكيات الإسلامية التى ترفض التشدد، وفى توجيهات الرسول الكريم ﷺ وكل جزيئة منها تحتاج إلى بسط وتفصيل؛ لكن مقامها ليس هنا [1].

والتوسط فى الدين الإسلامى له أسسه وركائزه، كما أن له منهجه القويم؛ الذى يتفق مع الطبيعة البشرية التى فطر الله الناس عليها.

وأما فريضة الجهاد: فهى أعظم صورة لليقظة والتأهب والاستعداد والمرابطة، حفاظاً على كيان الدعوة الإسلامية فى الداخل، وتبليغها فى الخارج. ورغم أن الإسلام دين يقوم على السلم إلا أن القتال له بواعثه ومواقفه ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ ﴾ [البقرة : ٢١٦]. فالمسلم حامل رسالة ولا يعطى الذلة فى دينه؛ ولذا رفع الإسلام من

(١) لمزيد من التفصيل يُرجع فى ذلك لدراستنا عن (الوسطية والاعتدالية فى الإسلام) القاهرة، ١٩٩٠م؛ حيث تناولنا سمة الوسطية فى المنهج الإسلامى، ومفهومها، ومظاهرها، وتطبيقاتها.. وغير ذلك.

منزلة الشهيد والشهادة وجعلها لا تطاول، وبهذا الفهم فتح المسلمون البلدان، وجاهدوا وأقاموا حضارتها.

ثم تعهد الله بالنصر: فى انتصار الحق على الباطل، إذا ما أخذ المسلمون بالأسباب، واعتمدوا على الله، دون أن تأخذهم ثقة أو غرور ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩]. ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠]. ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧].

وحديثتنا المتقدم عن الخصائص الخمس السابقة هو تقديم للأهم، ولا نجد كثير صعوبة فى الربط بين هذه الخصائص، **فالتوحيد** أمر متصل بالبناء العقائدى للأمة، وبيان لمناط التوجه فى هذا الدين، وفى إطار من البناء العقائدى القويم نجد **توازنًا** فى جوانب التشريع والأخلاقيات والنفس البشرية ونجد توسطًا فى التشريعات وفى المنهج الإسلامى، ثم يأتى الجانب الحركى والتبليغى لرسالة التوحيد بما حوته من توازن وما اتسمت به من وسطية، وذلك من خلال الجهاد والشهادة، ثم نصره تعالى للمؤمنين المجاهدين.

بيد أن خصيصة أخرى نلمحها فى الشريعة الإسلامية وفى هذا القانون الإلهى، وهى خصيصة لا تختلف كثيراً عما تقدم، وذلك فى (الشمول) والذى نجده واضحًا فى انتظام الشريعة لكل شئون الحياة من نظم سياسية واقتصادية، واجتماعية، وخلقية، وقضائية[1] .

وكان لهذا الشمول تأثيره العظيم فى بناء الحضارة الإسلامية على أسس قوية؛ على نحو نجد فيه تفصيلاً دقيقًا لكل جزيئات الحياة، ولكل ما يجرى فيها من أحداث، وما يستلزم ذلك من أحكام مُفصلة[2].

---

(١) محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الإسلامية، القاهرة، دار هجر.

(٢) ثم دلائل نبوية عدة تؤكد لنا هذا الشمول والتفصيل لكل الأحكام، ففى صحيح مسلم عن سلمان الفارسى ﷺ أن المشركين قالوا له: لقد علمكم نبيكم كل شىء حتى الخِراءة، قال أجل: لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، وأن نستنجى باليمين، أو بأقل من ثلاثة أحجار، أو برجيع، أو بعظم.

فأحكام العقيدة تتناول مسائل الإيمان والتوحيد، وأحكام تتناول الأخلاق وتتصل بالصفات الحميدة التى حثنا الإسلام عليها كالصدق والصبر والأمانة .. الخ، والصفات المرذولة المنهى عنها كالكذب والنفاق والرياء والخداع والغدر .. الخ.

وفى الأحكام العملية نجد العبادات بمعناها العام والخاص، والمعاملات؛ التى يقصد بها تنظيم علاقات الأفراد فيما بينهم، وتشمل أحكام الأسرة (الزواج والطلاق) مما يدخل فى نطاق (قانون الأحوال الشخصية) والمعاملات المادية (البيع والإجارة والرهن والكفالة) مما يدخل فى (القانون المدنى)، ثم أمور الشركات والتجارة (القانون التجارى). وأحكام تتناول نظام القضاء والدعوى والشهادة واليمين (قانون المرافعات) وأحكام تتناول معاملة الأجانب غير المسلمين فى الدولة الإسلامية (القانون الدولى الخاص) وتنظيم علاقة الدولة الإسلامية بالدول الأخرى وعلاقاتهم معًا(القانون الدستورى) وأحكام تتناول موارد الدولة الإسلامية ومصارفها وتنظيم العلاقات المالية (القانون المالى) فضلاً عن أحكام الجرائم والعقوبات (القانون الجنائى).

هذه بعض مظاهر شمول الشريعة الإسلامية؛ فى تغطية جميع الجوانب، ويبدو من ذلك قصور القوانين الوضعية فى عدم تناولها لمسائل العقيدة والعبادات والأخلاق، وهى المسائل التى تبنى الإنسان وتجعله صالحًا، ملتزمًا، يُجازى على الخير، ويُعاقب على الإثم.

ويبرز شمولها كذلك، فى تقديم عطاء متكامل للإنسان يشمل واقعه المادى والقلبى والعقلى.

وثمّ خصائص أخرى للشريعة الإسلامية – كان لها مردودها على الجانب الحضارى – وذلك فى: خلودها فهى ناسخة لكل الشرائع، وهى الخاتمة فرسول الله ﷺ هو موضع اللبنة[1]؛ الذى جاء فختم الأنبياء؛ ولذا نرى أحكامها صالحة لكل زمان، لا تحتاج إلى تغيير أو تبديل.

كما تتسم كذلك بموافقة الفطرة ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ [الروم: ٣٠]. ولأن الإسلام دين الفطرة فإن أحكامه ومبادئه تجد قبولاً

(١) يشار فى ذلك إلى قوله ﷺ فى الحديث الصحيح: «مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارًا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها، ويقولون: لولا موضع لبنة: قال ﷺ: فأنا موضع اللبنة، جئت فختمت الأنبياء» رواه مسلم.

لدى أصحاب النفوس السوية والعقول الراجحة، البعيدة عن الأهواء والضلال. فكل مولود يولد على الفطرة؛ وفق ما قررت الأحاديث ذلك[1] .

وتتسم أيضًا بالتيسير وعدم الحرج ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥]. ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨]. وتؤكد الأدلة النقلية أن السماحة سمة أساسية فى الشريعة الإسلامية والأمة الإسلامية أمة وسطى، بعيدة عن الإعنات والغلو؛ ولذا أقبل الناس على الإسلام رغبة فى سماحته، ويسر أحكامه، وسهولة الأخذ بها.

فضلاً عن خصائص أخرى متصلة بالنواحى الأخلاقية والعقائدية والتطبيقية، مما سنفصله فى مواضع أخرى تالية، بتناول مختلف.

المبحث السابع: طبيعة الحضارة الإسلامية ومبادئها التى بُنيت عليها

غنىٌّ عن القول أن الإسلام يحمل **حضارة إلهية**، فهو شريعة ومنهاج من عند الله، وبذا فإنه محفوظ من الخطأ والانحراف، والزيغ والضلال، ولا حاجة فيه إلى تعديل أو تغيير ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤].

إن طابع الحضارة الإسلامية أخلاقى فى أساسه، وإن ثمة ارتباطًا وثيقًا بين الحضارة وبين الإيمان بالله، وذلك فى مقابل (النفعية) ونظريات الذرائع فى الحضارة الحديثة.

وتقوم الحضارة الإسلامية كذلك على مفهوم العدل الشامل للبشرية كلها؛ دون تحيز لجنس أو لون، وترفض كل مفاهيم التميز والعنصرية والصراع بين القوميات، وادعاء التفوق لبعض الأمم دون غيرها.

وقد طُبعت الحضارة الإسلامية بجانب إيجابى؛ حيث لا يقر الإسلام الواقع الفاسد، بل يطالب بتغييره، ليتفق مع القيم الإسلامية؛ التى تدور فى إطار الربانية والالتزام الخلقى، وتقدير مسئولية الإنسان.

---

(١) منها قوله ﷺ: فى الحديث الصحيح « ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟» (متفق عليه).

كما طبعت كذلك بالفهم الإسلامى الأصيل؛ حيث الربط بين الروح والمادة والعقل والقلب فى إطار مفهوم جامع، ومنظور متكامل، هو فى ذاته دين ومنهج حياة ونظام مجتمع. ومن هنا يقرر الإسلام أن الرقى مادى وروحى معًا، وأن كليهما لا يعارض الآخر، وأنهما وجهان للحياة الإنسانية، وأن الإسلام يدعو للتقدم فى إطار الإيمان وسيادة الإنسان على الكون تحت حكم الله.

ولك أن تتساءل عن أسس هذه الحضارة الإلهية ومبادئها؟

ويمكن لنا أن نخلص إلى عدة أسس ومبادئ، بُنيت فى ضوئها حضارة الإسلام فيما يلى:

* **المبدأ الأول: التوجه فيها لله تعالى**، وحده لا شريك له ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣]. ووفق ذلك فإن الغايات من الأعمال والمقاصد متجهة لله عز وجل، فمن إماطة الأذى عن طريق إلى آخر درجات الجهاد، وأفضل أنواع السعى؛ تجد روح التقرب إلى الله هو النسق الذى يكتنف حضارة هذا الدين؛ فهناك اتحاد فى الغايات، وحسن فى التوجه، فالحياة كلها عبادة والأرض كلها مسجد، والمسلمون كلهم إخوة «ومهما اختلف المسلمون فى منهجهم وسلوكهم، أو فى وظائفهم ورتبهم الدنيوية، إلا أن الشئ الذى لن يتفق فيه اثنان هو النية وراء هذه الأعمال، والروح التى تحددها، فإن هذا الشىء تتعدد فيه المسالك، وتتفرق فيه السُّبل»[1].

وفى ضوء صفاء العقيدة تصفو النية، وينشرح الصدر، وترقى السرائر، وتخلص الأعمال لله تعالى، وتنقى من شوائب الرياء، وتبتعد الأعمال عن المظهرية والدنيوية ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١].

ووفق هذه العقيدة المثلى؛ التى لا يصل إليها الباطل، وبقوة الإيمان، وحسن التصديق واليقين، تشرق النفس الإنسانية بكثير من صفات الخير والفضائل الحميدة والأخلاق العظيمة.

---

(١) محمد الحسنى، الإسلام الممتحن، القاهرة، مرجع سابق، ص ٩٣،.. بتصرف شديد.

* **المبدأ الثانى: ربانية المجتمع**، فى المجتمع الربانى لا يكون الإنسان سلعة للبيع، ولا ينبغى أن يعيش على أساس تبادل المنفعة؛ بل إنه يهديه إلى طريق أفضل، ويُحمله رسالته ودعوته؛ بأن يخدم الآخرين، ويساعدهم غير طامع فى الأجر منهم، ولا حريص على مكافأة ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [هود: ٥١]. وألا يعلق قلبه بمباهج الحياة وزخارفها، فإن أقبلت عليه الدنيا حمد الله وشكره، وإن أصابته سراء حمد الله، وإن أصابته ضراء استغفر الله وقبل ذلك بصبر دون جزع، مؤمنًا بالقدر خيره وشره؛ غير مستعين بمخلوق مثله ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الأنعام : ١٧].

وتتأكد ربانية هذه الحضارة فى أن المسلم لا يبر أخاه، ولا يساعده كواجب خلقى مخص، بل يقوم بهذا العمل حرصًا على الثواب، وطلبًا للمغفرة، وطمعًا فى رضى الله سبحانه؛ فالله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه.

* **المبدأ الثالث: قامت هذه الحضارة الإلهية على دين ثابت لا يتغير**، كامل لا ينقص، كلٌّ لا يتجزأ، لا يحتاج إلى تطوير (بل إلى اجتهاد) ولا تؤثر فيه الأحداث والتطورات الحضارية، والانقلابات، والثورات؛ ذلكم لأنه جاء به وحى سماوى من الله سبحانه، وكتاب الله هو إطاره المرجعى، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الأنعام : ١١٥]. إنه نعت لهذا الدين بالثبات والقرار كشجرة طيبة، عميقة الجذور، ثابته الأصول ممتدة فى السماء، وتعطى أكلها دونما انقطاع. أما المذاهب الوضعية – الصناعة السطحية – فلا جذور لها، وليس لا قرار؛ كالكلمة الخبيثة؛ التى توشك، أن تجتث من الأرض، وتقتلعها أبسط الأنواء.

* **المبدأ الرابع: طبيعة هذا الدين أنه نابع من قوة ذاتية**، ومن نور إلهى ومن طاقة معنوية من الله سبحانه؛ لتثبيت دينه، وتأليف القلوب حوله، وتقريبه لعقولهم وقلوبهم.

وهذه القوة الذاتية هى التى استقطبت رءوس الكفر إلى الإسلام، رغم صلدهم وعنادهم ومنعهم لأبنائهم، ولغوهم فى القرآن، وليس إسلام عمر رضي الله عنه ببعيد عن الأذهان فبعد الرفض والعناد والصلف أتى القبول والانقياد والانضواء والهداية.

ونقرر هنا أن القوة الذاتية جاءت من كون الإسلام منهجًا إلهيًا عليه سعادة البشر ومن كونه يرفض الأنظمة الباطلة، التى قامت على أساس عقائدى غير صحيح. وهكذا جاء القرآن العظيم يغرس فى قلوبنا بغض الكفر وأهله، بعدم مودتهم، بل ومجاهدتهم، وألا نتخذ منهم بطانة، وعدم التشبه بهم ومخالفتهم، وكراهية أئمة الكفر والنفاق والضلال والإلحاد والغواية، وتحذير الناس منهم، وفضحهم، وكشف حقارة أغراضهم، ودناءة غاياتهم.

وفى المقابل نجد الحث على محبة المسلمين ومودتهم، والرحمة بهم، وعدم ظلمهم، والذلة لهم، والتقرب إليهم، والوفاء لهم، وإيثارهم، وخفض الجناح لهم، والدفاع عنهم، واتباع أئمتهم.

* **المبدأ الخامس: النظرة للدنيا فى هذه الحضارة** ليس على أنها حياة مباحة مشاعة مطلقة من سائر الحدود، لإرضاء الشهوات، وتحقيق الآمال، وجمع الأموال، وليست هى الرهبانية المغللة بالسلاسل والقيود. ولكنها نظرة متوازنة؛ تجمع بين الدنيا والآخرة؛ فآمال الفرد الطامحة، وشتى رغباته وأمنياته إن تحققت له فى الدنيا، وتحققت له كل أنواع الراحة والهناء، فهذا يعنى أن هذه الحياة هى النهاية والمآل، ولكن ثمة حياة أخرى، فيها ما تقر به العيون، وتلذ به الأنظار، وتطرب له القلوب.

لذا فما فات المسلم فى الدنيا ينتظره رضوان الله يوم القيامة؛ فالآخرة هى الراجحة دائمًا؛ لأنها هى الخالدة الباقية، وهى الحيوان ودار القرار، وهذا الفهم يدفع المسلم لبذل كل الجهد للعمل للآخرة، بالتزود بالتقوى، وقيام حياته على أسس إسلامية صحيحة.

ولذا يُحقر القرآن الكريم من شأن الدنيا – وكذلك الأحاديث النبوية – عندما نفهمها فهمًا خاطئًا فتكون فتنة ومتاعًا وغرورًا، ونجد أصداء ذلك فى كتب التراث، التى عنيت بالزهد، واعتباره نهجًا فى حياة المسلمين، والتقليل من قيمة الدنيا، والانفلات منها بالإقبال على الله، والشوق إلى الجنة، والعمل للآخرة، وجعلها مزرعة للغراس الصالح من العمل والأجر والثواب، وعندما نقابل ابتلاءها بالصبر واليقين، ولا نفرح كثيرًا بما تأتى به، ولا نأسى على ما فاتنا منها.

* **المبدأ السادس: روح الالتزام هى المسيطرة على هذا الدين**، فالإسلام روح وتشريع، وعبادة ومنهج، ودين ودولة، إنه يغرس فى أهله، ويُنشئ فيهم الالتزام بالقانون الإلهى

الشامل، والاستجابة الحقة[1] لأوامر الحق ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤].

ولا نعجب كثيرًا عندما نقرأ تفسير الآية ٩٠ من سورة المائدة، والتى حرمت الخمر (فاجتنبوه) أن نجد الخمر وقد سالت فى سكك المدينة – بنفس تعبير أنس بن مالك – حيث أُهرق الشراب، وكُسرت القلال استجابة لأمره تعالى. وهذا هو التطبيق الحقيقى للالتزام. وتستطيع أن تجد له صورًا متعددة أخرى؛ حيث يظل المرء صائمًا شهرًا كاملاً لا رقيب عليه – بعد الله – إلا نفسه، فى ضوء إيمان قويم، ويقين بالاستجابة، وإحساس بالمراقبة.

* **المبدأ السابع: الوحدة عنوان رئيسى لحضارة هذا الدين**، ويقصد بالوحدة هنا: وحدة الدين ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون : ٥٢]. ويمكن رصد هذه الوحدة فى دين الله فى ثلاث زوايا "وحدة المصدر، ووحدة الموضوع، ووحدة التسمية "[2] .

أما وحدة المصدر؛ فتتمثل فى نزوله من لدن حكيم خبير، على لسان وحى ذى قوة عند ذى العرش مكين، بلسان عربى مبين: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]. ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الشورى : ٢].

وأما وحدة الموضوع، فتتمثل فى مضمون الرسالة، التى جاء بها، وكونها تحمل دعوة التوحيد والهداية والاستقامة والطاعة ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ

---

(١) تصديق ذلك نجده فى كتب الزهد، ونلمح هذه الكلمات التى ذكرها صاحب الكتاب (الأمالى) ورواه الأصمعى إذ قال: بلغنى أن بعض الحكماء كان يقول " إنى لأعظمكم، وأنا كثير الذنوب، مُسْرِفٌ على نفسى غير حامد لها، ولا حاملها على المكروه فى طاعة الله عز وجل. قد بلوتها فلم أجد لها شكرًا فى الرخاء، ولا صبرًا على البلاء. ولو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يحكم أمر نفسه، لترك الأمر بالخير، والنهى عن المنكر ولكن محادثة الإخوان حياة للقلوب وجلاء للنفوس وتذكير من النسيان – ثم قال: واعلموا أن الدنيا سرورها أحزان، وإقبالها إدبار، وآخر حياتها الموت.. فكم من مستقبل يومًا لا يستكمله، ومتنظرٍ غدًا لا يبلغه، ولو تنظرون إلى الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره".

(٢) رءوف شلبى: دراسة فى مفهوم وحدة الدين، سلطنة عمان، الندوة العلمية، (إصدارات مجلة الأزهر)، ١٩٨٨، ص٧٤.

إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥]. ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

وأما وحدة التسمية؛ فالدين عند الله هو الإسلام ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران : ١٩]. ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٤].

* **المبدأ الثامن: العالمية أساس مكين لهذه الحضارة:** وقد استلهمت هذه العالمية أسسها وركائزها من الشريعة الإسلامية وحياة الرسول الكريم وأصحابه؛ فقد جمع هذا الدين بين القوميات المختلفة فى قالب واحد، فهذا سلمان الفارسى ﷺ، وهذا صهيب الرومى ﷺ، وهذا النجاشى، وهذا بحيرا الراهب، وهذا عبدالله بن سلام اليهودى. وهذه رسائل الرسول الكريم ﷺ لكسرى فارس، وقيصر الروم، ومقوقس مصر وغيرهم وهذه الأمصار – غير العربية – تفتح بكلمة الحق. وهذا تأكيد لهذه العالمية؛ التى تتأكد بدخول الكثيرين فى الإسلام يومًا بعد يوم، نافضين عن أنفسهم غبار الضلال؛ ممتدحين القيم الأصيلة الفريدة؛ التى يدعو إليها، والتى تكسبه خلودًا وثبوتًا واستمرارية، والتى وضعت فى إطار إنسانى متكامل.

وبوسعك أن تصحبنى إلى هرقل – عظيم الروم – ففى حديثه مع وفد التجارة العربية بزعامة أبى سفيان بن حرب، وما وجهه إليهم من أسئلة نلمس خلوصه إلى إدراك تفرد هذا الدين، فقد خلص إلى أن أتباع الرسول ﷺ من الضعفاء، وأنهم يزيدون ولا يرتدون عنه، وأن رسول الله ﷺ غير متهم بغدر أو خيانة، وأنه لا يكذب، ويأمر بعبادة الله وعدم الشرك، وترك ما يعبده آباؤهم، وبالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

وما يعيننا هنا أنه – أى هرقل – توصل إلى استنتاجات منطقية بنبوة هذا النبى، وسمو دعوته، وأن رسالته عامة، وليست للعرب وحدهم، وهذا ما دعاه إلى القول: [.. فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه حبًا وتقديرًا ..][1] .

وإذا عُدنا من بلاد الروم، بعدما أنصتنا لهرقل، نجد الرسول الكريم يحارب كل عصبية وقبلية، ويؤاخى بين المهاجرين والأنصار؛ تأكيدًا لمنطق العالمية فى القرآن الكريم

(١) يمكن للقارئ الكريم الرجوع إلى نص ما جاء من حوار بين هرقل وأبى سفيان فى كتب السير وكتب الصحاح وشروحها، ومنها فتح البارى ج١، ص ٣٥-٤١.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨]. ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم :١].

ونؤكد أن العالمية تتمثل فى صلاحيته للتطبيق فى كل أنحاء الأرض، دون بلد أو شعب أو أمم لها عاداتها وتقاليدها.

* **المبدأ التاسع: الإنسانية؛ حيث رفع الإسلام من شأن الإنسان** – على نحو ما أشرنا – ورفع من كرامته ومعنوياته، ومنحه حرية الفكر والرأى، وحمله مسئولية فردية تجاه نفسه وغيره وشعور الفرد بالمسئولية يدفعه للعمل والإنتاج والعطاء.

والإنسان فى الشريعة جسم له مطالبه، وروح لها إشراقاتها، وشخصية لها قوامها واستقلالها. وهى لبنة فى بناء المجتمع المسلم، بما لها من حقوق، وما عليها من واجبات. وتتحقق سعادة الإنسان المسلم بالتوازن الطبيعى بين الجسم والروح معًا وفق ما بنيت عليه أحكام الشريعة الإسلامية.

* **المبدأ العاشر: يقرر الإسلام حقيقة مهمة فى مجال التعبد والفهم**، وهى أنه لا وساطة فى الإسلام وأن معايير المفاضلة فى الدنيا لا تكسب أحدًا ميزة عن سواه؛ وأن ليس لرجل الدين أية سيطرة روحية، وليس فى الإسلام توسل بأحد إلا الله سبحانه ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦]. ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء : ٥٧]. ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠].

وبهذا المبدأ قضى الإسلام على كل محاولات التوسط والدجل؛ التى كان يمارسها القساوسة، إيهامًا للناس بقدرتهم على إدخالهم الجنة، أو بيع قراريط لهم منها، وإعطائهم صك الغفران والتى مارسها قديمًا بعض الدجالين[1].

وعلى هذا النحو حرمت الشريعة الذبح لغير الله، والنذر لغير الله، ونهت عن التبرك بشجرة أو حجر، وعن الاستعاذة بغير الله، والاستغاثة بسواه، ودعاء غيره، ونهى كذلك

(١) لم يخل العصر الحديث من مثل هذه الدعاوى فى المجتمعات الإسلامية، لكن المفزع حقًا أن يتزعمها مثقفون، يسيطرون على عقول الناس، وما الدكتور بريقع – فى الآونة الأخيرة بالإسكندرية – عن الأذهان ببعيد!!.

عن إتيان الكاهن والتحذير من الطيرة والكهانة. والأدلة على ذلك لا تحصى، وهى تتواتر وتعضد بعضها مؤكدة النهى عن كل مظاهر التوسل والاستغاثة بغير الله تعالى.

* **المبدأ الحادى عشر: قيام حضارة الإسلام على الإعلاء من شأن العقل**، واعتباره أكرم ما خلق الله، وأفضل ما يكتسبه المرء، وهو رشد يميز بين الهداية والضلال، وروية وبصيرة، وهو محور التكليف فى الشريعة، وضابط الوزاع الأخلاقى. وقد حرمت الشريعة كل ما يذهب العقل، كما حاربت الخرافات والأساطير التى ليس لها واقع عقلى.

" وبالعقلية العلمية كانت علوم المسلمين هى أساس الحضارات فى العصر الأول، وأخذت الحركة العلمية تتدرج فى أطوار مختلفة، حتى فتح المسلمون نافذة واسعة؛ أطلوا منها على حضارات العالم، وعرفوا المنهج الاستقرائى حق المعرفة، وانتقلوا من المعلوم إلى المجهول"[1] .

ووفق المنهج الإسلامى فى العناية بالعقل وإقداره وحمايته، فقد دعا إلى تحرير العقل من الجهل الذى يجعل النفوس مُعرضة للزيف والبدع والخرافات، كما حرره من التبعية، والحجر العقلى، وجعل البرهان أساس الإيمان الصحيح، وبين أن كل اعتقاد أو عمل لا يقوم على دلائل وبراهين فهو مردود. وحذر من اتباع الهوى والانقياد الأعمى للأهواء والمغريات ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

* **المبدأ الثانى عشر: التعادل بين الفرد والمجتمع مبدأ مهم فى الإسلام**، وله تأثيره على استقامة حركة العلاقات والتوازن داخل المجتمع فى إطار الفهم الإسلامى الصحيح، فبالنسبة للفرد قرر الإسلام حرمة دمه وماله وعرضه، وقرر له حرية الرأى والفكر والتملك والعقيدة " وفى المقابل فرض عليه واجبات نحو المجتمع، منها أن يمارس حقوقه السابقة فى إطار مصلحة المجتمع، بما لا يتعارض مع حقوق المجتمع. وفرض عليه واجب حماية المجتمع، والدفاع عنه. فحريات الأفراد مقيدة برعاية أخلاقيات

(١) أحمد عبد الرحيم السايح: العقلية العلمية فى الحضارة الإسلامية، الكويت، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٢١٦، ذو الحجة ١٤٠٢ هـ، ص ١١٢.

المجتمع[1] . والآداب الاجتماعية التى حث عليها الإسلام كالمصافحة، وعيادة المرضى، ومواساة المصاب، وصلة الأرحام، وإكرام الضيف.. إلخ، لها جانبها الفردى الذى يعمق الشعور الجماعى؛ الذى يتأكد بصور متعددة فى المحبة والإخاء والإيثار والتعاون على الخير، وتوحيد الكلمة، وجمع الصفوف، وعدم التنازع، والحقد، والأنانية.. وهى كلها تلاقٍ للواجبات الفردية والجماعية والتوازن بينهما.

ومبدأ التعادل له مردوده على العلاقات السوية بين الأفراد داخل المجتمع، وصون حقوق الأفراد بما يحفظ للمجتمع تماسكه وقوته، وبما تحمى به الآداب للمجتمع، وتقوى العلاقات والصلات بين أفراده فى أطار سلوك اجتماعى سوى.

* **المبدأ الثالث عشر: الثواب والعقاب**، والجزاء والردع، والتدعيم والعقوبات هى تصور لفلسفة الإثابة للمحسنين، والعقاب للمخطئين فى الفكر الإسلامى القويم فالاعتداء على حرمة المجتمع هو هدم لكيان الأمة، ومقومات المجتمع؛ لذا عدت اعتداءات وجرائم جماعية وليست فردية؛ ولذا وضعت الشريعة حدوداً لجرائم العِرض (الزنا)، وجرائم المال (السرقة)، وجرائم النفس (القتل) وهى كلها جرائم تمس حرمات المجتمع المسلم.

وقد نهانا القرآن عن إتيان الفواحش بكل صورها ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام:١٥١]. ونهى عن اتباع الشيطان ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة : ١٦٨].

وفى كل جريمة مما تقدم يحدد القرآن الكريم وسائل العقاب والردع بالجلد (للزنا)، وقطع اليد (للسرقة)، والقصاص (للقتل) بنفس الترتيب السابق – وهو جزاء يحفظ صورة الالتزام والاستجابة والردع لكل فئات المجتمع، وتأكيد لسلامة الإيمان وسلامة المجتمع.

ولا يقف الأمر عند النهى عن الجرائم التى لها جانب (حد) بل نجد نهيًا عن جرائم أخرى مثل أكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين، وبخس الميزان، والغدر، والخيانة

(١) محمد إبراهيم الخطيب: التعاون بين الفرد والمجتمع، القاهرة، مجلة المنبر الإسلام، العدد ٦، السنة ٥١، جمادى الآخرة ١٤١٣، ص ص ٩٥-٩٦.

وهى جرائم فردية وجماعية كذلك. بيد أن هناك جريمة عظيمة؛ لها تأثيرها السيئ على الفرد والمجتمع وهى الشرك بالله تعالى (جريمة العقيدة) فهى الضلال البعيد والإثم العظيم، والسقوط الحقيقى، الذى لا يستوجب المغفرة من الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨].

وحرص الإسلام على إقرار عقوبات للجرائم هو حماية للمتعدى من نفسه أولاً، وردعًا ثانيًا، وحماية لكل المجتمع من السقوط والتدهور ثالثًا، وحماية لحرماته وقوامه رابعًا. واستقامة المجتمع وسلامته يرتبطان ارتباطًا وثيقًا بوجود الوازع الدينى لدى أفراده؛ الذى يحول بينهم وبين الوقوع فى المنكر، ومقاربة الفواحش.

وتتسم الشريعة الإسلامية فى هذا الصدد بمواكبة النفس البشرية، التى لا تسلم من غلبة الشيطان عليها، والتى تأمر بالسوء أحيانًا، ومثل هذه النفوس تحتاج إلى ما يصدها ويزجرها ويخيفها بدل أن ينفلت زمامها، وتكون وبالاً على صاحبها وعلى غيره[1] .

وكان أحد مصادر الثراء فى الحضارة الإسلامية أن أقامت توزانًا بين العقاب والثواب فى ضوء فهم رشيد للنفس البشرية.

وبعد أن عرضنا للمبادئ السابقة، التى بنيت عليها حضارة الإسلام فإننا نقرر أن خلوصنا لتلك المبادئ إنما هو اجتهاد منا، ولا يعنى ذلك عدم وجود مبادئ أخرى، إلا أن المبادئ السابقة – عندما نعيد التأمل فيها – نجد أنها متصلة ببناء المجتمع وكيانه مثل ربانيته – ربانية المجتمع – كمظهر لتمثل أفراده للإسلام، وإبراز هوية هذا المجتمع؛ الذى يتجه فيه الأفراد صوب السماء بعقيدة صافية، تدخص ما عداها من الخرافات والأباطيل والشوائب.

كما أنها وصف للدين، الذى قامت فى ضوئه الحضارة، فكون ثابتًا وكاملاً يعنى تمام الرسالة وكمال الدين ووجوب التسليم والانقياد، وهذا يعطى الحضارة الإسلامية

---

(١) المتأمل لجوانب الثواب والعقاب فى بعض الحضارات الحديثة، يجد أنها عُنيت بالثواب دون العقاب فكان لذلك مردوده السلبى على سلوك الأفراد، وفى بعض الحضارات القديمة نجد العكس؛ حيث التركيز على العقاب كمحك لاستقامة الأفراد. وأنت ترى أن ثمة خللاً فى الناحيتين، وأن القرآن عندما قرر أن النفوس منها الفاجر والتقى، ومنها الخبيث والطيب فإن كل واحدة تحتاج لنمط مختلف من التعامل.

الثبوت والجلال. وكونه به قوة ذاتية كامنة فى روحانياته وتشريعاته فهذا يعنى سعة الانتشار، كثرة القاعدة وزيادة الداخلين إلى رحابه، والراغبين فى نوره، القاصدين لأبواب الخير فيه، الموقنين أنه لا رشد إلا به ولا استقامة بسواه، ولا صلاح للبشرية إلا بتعاليمه.

ونظرته للدنيا ليس على أنها حياة مباحة، وأنها ليست بباقية، وأنها ممر لحياة أخرى أفضل تقذف فى قلوب المسلمين شوقًا لهذه الحياة الآخرة، دون أن ينسوا نصيبهم من الدنيا. إلا أن شهواتهم ورغباتهم ونزواتهم قد قُننت ورشدت بإيمان بأن ما فات المرء فى هذه الحياة سيدركه يوم القيامة عند الله تعالى، وهذا يكسب الحضارة الإسلامية نقاءً وصفاءً وترشيدًا لسلوك المؤمنين، تهذيبًا لشهواتهم، وحدًا لأهوائهم.

والعالمية والوحدة والإنسانية والتعادلية مبادئ قويمة، لها إطارها الفلسفى المعرفى ثم إطارها التطبيقى السلوكى المتمثل فى كسر الإسلام لدوائر القومية والمحلية والعروج لمراتب العالمية باعتباره دينًا موجهًا لكل العالمين، وباعتبار مضامينه الحضارية والمعرفية ليست قاصرة على زمان أو مكان أو جنس. والمتمثل فى وحدة موضوعه ووحدة مصدره ووحدة التسمية بما يعنى انضواء الجميع فى بوتقه إسلامية واحدة، تكون فيها التسمية والمصدر ثابتين. وهذا أمر ينبغى أن يكون له صداه فى حركة العالم الإسلامى ووحدته، وترابط عناصره، واتحاد رؤيته ومفاهيمه، وانصهاره بروح هذه الوحدة، ومفهوم الأمة الواحدة والمتمثل فى تكريم الإنسان بمظاهر عدة، وإعطائه حرية فى مجالات عدة، بما يتفق وقيم المجتمع وأخلاقياته. وهذا نرصده من خلاله إقدار هذا الدين للتفاعل بين الفرد والمجتمع ووضع ضوابط لقيم وأخلاقيات فردية وجماعية، ولها تأثيرها على علاقة أفراده فهى حضارة متوازنة، مُقدرٌ للأفراد حقوقهم وواجباتهم فيها، ومُقدرٌ للمجتمع أواصر تلاحمه وترابطه واستقامته.

والإعلاء من شأن العقل هو تأكيد للجانب الفكرى فى هذه الحضارة، وإشارة لضرورة اليقظة والانتباه وسلامة العقل والبعد عن كل ما يخرجه عن رشده، وبذا فإن دعوة القرآن الكريم للتفقه والتفكر والتدبر والتبصر والاعتبار كانت موجهة للمسلمين فى تفاعلاتهم الثقافية مع الحضارة الأخرى، ومن هنا نقرر أن الحضارة الإسلامية رغم أنها حضارة عطاء إلا أنها لا ترفض ما عداها من ثقافات، ولا تضع نفسها فى إطار مغلق، لا ينفذ إليه شىء، خوفًا على ما بداخله. ولكنها تستجيب وتتحدى فى ذات الوقت.

ومبدأ عدم الوساطة فى جانب العبادات والروحانيات يؤكد لك عنصر البهاء والتوحد فى حضارة هذا الدين، واستقامة أسسه. فتنصيب بعض الناس لأنفسهم أو تنصيب الناس لهم كسلالم ووسائط لله تعالى أمر يجافى صفاء العقيدة، وينافى أصول التوحيد، وينقص من إيمان فاعليه إن لم يدخلهم فى دائرة الشرك، وعندما يلجأ الناس لمثل ذلك فهو نكوص لحياة الجهل والضلال وعود للقرابين والزلفى.

ومبدأ الالتزام كسلوك وتطبيق هو بيان منهج هذه الحضارة، التى لا تعترف بالكلام الأجوف ولا بالدعاوى والشعارات التى ليس لها نصيب فى أرض الواقع، ولكنها تؤكد على أن القول بلا عمل هو مقت عند الله، وأن الداعى إلى الخير ينبغى أن يكون أول فاعل له، وأن من الكذب أن يخالف عمل الإنسان قوله، وأن من الجهل والضلال أن يدعو الإنسان الناس لبر ثم ينسى هو نفسه؛ لذلك فإن حضارة الإسلام هى حضارة تطبيق واستجابة والتزام.

وقيام هذه الحضارة على إقدار الثواب والعقاب، وجعل حدود شرعية للجرائم، والنهى عن اقتراف الآثام، وهو تجسيد لعناصر القوة والتحصين للمجتمع فى هذه الحضارة. فعندما تترك الأمور بلا وازع ولا مُرشد ولا زاجر ولا عقاب هو نوع من الفوضى والهمجية وحياة الغابة، وبذا لا نتوقع للأفراد إنتاجًا وإنجازًا، ولا للمجتمع تقدمًا ونموًا؛ ولذا حرصت الشريعة على كبح جماح قوى الشر فى الإنسان، ومقاومة الشرود النفسى لديه. ووضع خطوط النفوس المتقابلة أمام تشريعات حادة، لا تقبل التخفيف أو التنازلات أو التوسط.

ومن خلال المعالجة المتقدمة نؤكد أن الحضارة الإسلامية حضارة أصالة وإنسانية وواقعية وشمول وعالمية والتزام وسلوك واستجابة وأن منهجها الإسلامى اتسم بالفطرية والكمال والثبات والصدق والواقعية.

المبحث الثامن: مسلمات فى حضارة هذا الدين

جمع هذا الدين تراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فرسول الله ﷺ هو مظهر الوراثة الكاملة لكل الأنبياء والرسل، والوحى الذى أنزله الله تعالى على رسوله فيه تصديق لما نزل من قبل ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وفى مجال دراسة حضارة هذا الدين نرصد عدة مسلمات رئيسة، يجب أن تكون بمثابة قناعات وثوابت لدى المتعامل معها، ولدى كل مسلم، ولدى كل متأمل ودارس لها على النحو التالى:

- الإسلام معيار لا يسع غيره، ولا يقبل أن ينافسه غيره على النفس البشرية، وعلى الحياة البشرية فهو يعنى استسلام الفرد والجماعة والإنسانية لله تعالى: فلا معنى لأن نكون مسلمين ويُعطل الإسلام فى مجريات حياتنا، أو أن يبقى جزء من الإسلام معطلاً.
- الإسلام هو الصيغة الوحيدة للعقلية العلمية الشاملة، فقد أطلق للتفكير عقاله، وللتجريب مداه. وكل ما يصل إليه الفكر السليم أو التجريب الصحيح معتمد إسلاميًا.
- الإسلام هو الصيغة الوحيدة لتفجير طاقات الإنسان كلها فى إطارها الصحيح، فالطاقة العقلية تفُجر فى التأمل والتجريب، والطاقة النفسية تفجر فى أطرها الأخلاقية، والطاقة القلبية لها مداها فى عالم القلوب وفتوحاتها وملوكاتها، وكذلك الطاقة الروحية، والطاقة الجسدية.

ومن ثم فالمسلم تنفجر طاقاته كلها، ويفجر طاقات الكون كلها بتوازن كامل يحقق للكون سلاما.

- الإسلام وحده الذى يعطى للإنسان وضوح الرؤية والبصيرة، بينما يطمس الكفر على القلب، ويرى الكافر الحق خطأ والخطأ صوابًا، وكذلك المنافق، فهما يمشيان فى الظلام ويظنانه نورًا.
- الإسلام هو الصيغة الوحيدة للحق الخالص فى هذا العالم، والإنسان مكلف من الله تعالى بأنواع التكاليف، وما من شىء له علاقة فى هداية الإنسان وتبصيره إلا ذكرته النصوص النقلية.
- الإسلام هو الصيغة الوحيدة للعدل فى الحكم أو المعاملة أو التوزيع، فالعدل صيغة للحكم فى الإسلام، وفى النظام الاقتصادى، وفى النظام الاجتماعى والعلاقات بين الأفراد.
- الإسلام هو الصيغة للسلام الإنسانى، والبعد عن القلق النفسى، والاضطراب، والحيرة القاتلة. وتقديم تفصيلات لسلام الإنسان مع نفسه ومع غيره، وسلام الأسرة والمجتمع، والسلام بين الشعوب.

- الإسلام هو التعبير الصحيح والأصح للشورى كنظام للحكم وللحياة وللأفراد، والشورى الإسلامية هى المظهر الوحيد السليم لأى ممارسة ديمقراطية خالصة.

- الإسلام هو الصيغة العليا الوحيدة للحرية الإنسانية بشتى صورها، حرية الرأى والفكر والعقيدة والتملك وفق ما أشرنا إليه[1] .

ونخلص من رصدنا للمسلمات السابقة إلى أن دينًا بهذه الكيفية لا بد أن تكون له حضارته المتميزة، ويقدم النموذج الأعلى للإنسانية العليا، وسبل تقدمها وتكامل حركتها ضمن المسار الصحيح؛ حيث إن التقدم يسير مترافقًا بعضه مع بعض، فالتقدم فى الماديات يرافقه تقدم فى السلوكيات. وإن الصيغة الكاملة للتصورات والسلوكيات والعقائد والتشريعات لا توجد إلا حيث يوجد الإسلام. وإن هدى الأنبياء كله جسد فى إرث هذا الدين، وإن البشرية لن تحط رحالها فى أمرها كله حتى تكون على بصيرة وعلم إلا باتباعها هدى الأنبياء؛ بعيدًا عن دعاوى العلمية والعقلية[2] .

وإذا كنا قد قدمنا مسلمات خاصة بحضارة هذا الدين، فإننا فى المقابل نقدم مسلمات أخرى فى مجال عواقب تركه وعدم الأخذ به والانسياق إلى ما سواه على النحو التالى:-

- الشعور بالخواء الروحى[3]، والتعرض لغضب الله وعقابه، جزاء طبيعى لمخالفة تعاليمه؛ حيث تنتشر الفاحشة، ويعم الفسوق، ويظهر الفساد، ويبتليهم الله – بلاء شر – بالأمراض مصداقًا لقوله ﷺ: «ولم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم» [رواه ابن ماجه فى كتاب الفتن- ج٢ ص١٣٣٣].

---

(١) سعيد حوى: من أجل خطوة إلى الأمام، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٧٩، ص ص ٤٠-٥٢.

(٢) من يقرأ هذا الكلام يحسب أن الواقع يناقضه، عندما يرى الحضارة الغربية، وقد تفوقت وتقدمت دون أن تستند إلى شئ مما ذكرناه. ونحن نؤكد أن هذا التفوق ليس دليلاً على كمال حكمتها ورشدها ورجاحتها وسلامة منهجها، إذ أنه يعتمد على منطق الغاب، وإهدار القيم الأخلاقية، والانبهار بالقشور، وعبادة المادة، والشهوات العارمة، وأن هذا التقدم يخفى خلفه كوراث قيمية وأخلاقية، لا حصر لها، وأن الإسلام يواكب التقدم ويساير التطور، ويسمو بالمرء، ويكسبه عزيمة وإرادة. إننا نتفق مع الدكتور حسن الشرقاوى فى مؤلفه (نحو منهج علمى إسلامى) فى نعته للحضارة الغربية بأنها حضارة مادية عوراء! ترى الحقيقة من جانب واحد، ولا تعترف إلا بما تراه وتحسه وتجربه.

(٣) لعل من مظاهر هذا الخواء فى الحضارات الحديثة عدم وجود مكان للحياة الأخرى فى نظرتها وصياغتها الأخلاقية، وقطع وشائج الصلة بها وراء الدنيا، ولا مكان للالتزامات القيمية الإنسانية فى برامج حياتها، وطبيعى أن يحدث ذلك خواءً روحيًا لدى الأفراد.

- تزيين الشيطان لهم سوء أعمالهم، وضلال سعيهم فى الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

- فقدان الأمن والأمان، وتفشى الجريمة والفوضى الخلقية والتفسخ الجنسى والقلق والاضطراب ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طـه: ١٢٤].

- اتساع عدوى الأمراض الروحية والجسدية أحد ثمار الحضارات والفلسفات المادية التى تقوم على أساس مجرد من القيم والمثل العليا.

- تفكك الكيان النفسى، والثنائية بين الفرد والمجتمع وتغليب الحاجات والطاقات، وتفجيرها فى المعصية.

إلى غير ذلك من مظاهر غضب الله تعالى، والضلال والشقاء[1] على نحو ما فصل القرآن الكريم فى إشارته المتكررة لعاقبة المعرضين عن الحق، وراغبى الهداية فى غير منهج الله تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ [الطلاق : ٨-١١].

ورصدنا المتقدم للمسلمات – الإيجابية ثم السلبية – لحضارة هذا الدين، ونهجه الفكرى والتطبيقى وبيان أن الضلال والزيف فى ترك نور الله تعالى، والتعلق بأهواء وضلالات بشرية، يأخذنا للإجابة عن سؤال – أجده مهمًا فى نهاية تناولنا لقضية الحضارة – وهو: ما واجبنا نحو حضارتنا ؟

---

(١) نحن لا نأخذ موقف التجنى والعداء من الحضارة الأوربية الحديثة، ولكننا نرصد ظواهر التردى، وأخطاء لها، تحدث عنها أبناؤها أنفسهم، وإنى الآن أذكر حقائق مرة، شاهدة على جرائم الغرب وخصوصًا تجاه الإسلام مما يشير إلى الاشمئزاز والحزى والحزن لدينا..

المبحث التاسع: واجب المسلمين نحو حضارتهم

ثمة قناعة ينبغى أن تستقر فى داخلنا، وتكون باعثًا لنا فى فهم أيدلوجية هذه الأمة، وهى ضرورة الثقة فى ذاتنا، وأننا أمة ذات حضارة، وذات رسالة خالدة لإسعاد الإنسان فى كل مكان، وأنه بفضل القناعة الإيمانية، والقدرات الكامنة فى هذا الدين، تستطيع الأمة الصمود مستلهمة رسالتها الخالدة، مدافعة عن موقعها، متطلعة لاستعادة توزانها، وأن المسلمين بامتلاكهم المنهج الربانى يصبحون أكثر عطاء وقدرة من جميع أصحاب المناهج البشرية، فلديهم من منهجهم ما يحقق لهم السيادة، متى استمسكوا به، وصمدوا فى الدفاع عنه، وحمايته.

وثمة ما نؤكد عليه، امتدادًا للقناعات السابقة، وهو أنه بات واضحًا – على ألسنة وأقلام عدد كبير من كتاب الغرب – مدى حاجة البشرية إلى الإسلام " كمنقذ لها من الأزمة الحضارية التى تمر بها من جراء خضوعها للحضارة الغربية المادية الإباحية، التى تسير إلى الأفول، والتى عجزت كل أيدلوجياتها عن تحقيق الهدف الحقيقى للحضارات والأمم، وهو سكينة النفس، وطمأنية القلب، والعطاء المادى والروحى الجامع المحقق للإنسان إنسانية، وهو ما لا يوجد إلا فى الإسلام وحده[1] .

ولذا نجد أنه من العبث أن نبحث عن النهضة والتقدم فى غير ديننا؛ لأنه من أخطر ما يواجه أمة هو أن تنهزم فى فكرها، ومنهج حياتها أمام الحضارات الأخرى[2].

وهنا نجد أنفسنا أمام السؤال وهو : ما واجبنا نحو حضارتنا ؟

١- واجبنا أن نتعرف على حضارتنا الإسلامية، وعلى خصائصها، ومقوماتها الذاتية، ومتطلبات نهضتها، « بحيث نكون على بينة من الفرق بين ما هو مفيد لها، وما هو مضر بها، ويتم ذلك بعد الوعى الإيمانى؛ نستعرض فيه وقائع الأمم، وحياة

---

(١) أنور الجندى: تأصيل الانتماء وترويج المتاهات، جدة، مجلة المنهل، العدد ٤٩٥، ذو القعدة ١٤١٢ هـ، ص ١٣.

(٢) فى هذا الصدد يستوقفنا الشاعر محمد إقبال، راصدًا خطورة هذا الانهزام الفكرى الداخلى المعنوى- قائلاً " اعلموا أيها السادة أن من ثار على شخصيته وكرامته وفقد الثقة بنفسه مات، ومُحى من الوجود، ومن فر من معسكره، وانحاز إلى صفوف الأعداء، وتطفل على مائدتهم عوقب بالهوان والشقاء إلا أنه لم يجن عدو على عدو مثل ما جنينم أنتم – أى العرب والمسلمون – على أنفسكم، ولم يسئ أحد إلى أمته إساءتكم إلى أمتكم".

الشعوب، وتجارب الدول، ونطلع منه على نماذج مفيدة للفرد والجماعة، تبين سنة الله سبحانه فى نمو الحضارات وانحدارها»[1].

٢- **علينا الإيمان بفاعلية هذه الحضارة ومصدرها، وأنها باقية أصيلة مستمرة** باستمرار الإسلام الذى تم بناؤه، وتكاملت أركانه ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣]. ويواكب ذلك الثقة المطلقة فيما قدمه القرآن الكريم من صياغة للحياة، وفيما قدمته حياة الرسول ﷺ من نموذج قرآنى تطبيقى فريد.

٣- **الوعى بالذات المسلمة، وعدم الانبهار بالمظاهر المادية، والتحول من الاستهلاك لتقنيات الغرب، إلى الإنتاج والعطاء**، أى إلى أمة منتجة فاعلة، تنطلق فيها طاقات الشباب المسلم، وتتكون الرؤية الذاتية فى الحكم؛ ما يؤخذ وما يرد، ورصد مواطن القوة والضعف فى الحضارات الأخرى وفق هذه الرؤية، التى لا ترفض المدنية، وإنما تقبلها وقد تُحدث فيها تغييرات بما يتناسب مع حضارة الأمة المنبثقة عن عقيدها[2].

٤- **واجبنا أن نعتنى بثقافة هذه الأمة، ولبنة حضارتها المعرفية**، فكلما ازداد المسلم معرفة ازداد علمًا وتبصرًا بأفضل السبل إلى تحقيق المزيد من أسباب الأمن والتقدم والاستقرار.

٥- **واجبنا أن ندرك أن سبب التأخر الذى عرض لهذه الأمة كان لانصراف المسلمين عن إسلامهم**، عن حضارتهم. فعندما انحرفوا عن منهج الله استلب الله منهم أمانة العمارة والتمكين فى الأرض، واستودعها لدى غيرهم، ليس لأنهم أفضل أو أهل لذلك؛ ولكنه تسليط من الله تعالى على الذين خانوا الأمانة، ونبذوا العهد، من أجل أن ينبههم ويعيدهم إلى الاستقامة والرشد.

٦- **واجبنا مراجعة الذات**، «والعثور على روحنا المتميزة فى حضارتنا وسط هذا الخضم من الصراع الحضارى الذى نواجهه اليوم. وفى هذه الدعوة كثير من الفائدة من أجل توعية الصحوة المباركة التى يشهدها العالم الإسلامى إلى نحو ما هو أصيل ونبيل فى

---

(١) جميل عبدالله المصرى: فى الحضارة الإسلامية، جدة، مجلة المنهلة، العدد ٤٩٥، ص ٤٨.

(٢) مثال ذلك نجده فى فنون البناء والزخارف والفنون التى تعكس جانبًا عقائديًا، ومثلها لا يستورد كما هو، فلابد أن يطبع بالبصمة الحضارية العقائدية للأمة.

صميم حضارتنا. فبتجدد الإيمان ببناء حضارة مصدر فكرها الإسلام بالابتعاد عن البدع؛ يعود المسلم إلى دروه العالمى فى التبليغ والشهادة»[1].

٧- **واجبنا الاستقلال الحضارى فى مجالات الثقافة والسياسة وا داب والتربية**، تأكيدًا لأصالة ديننا وحضارتنا، والحذر من العقائد والسياسات المستغربة المستوردة؛ التى تهدف إلى القضاء على الشخصية الحضارية الإسلامية بدعوى وحدة الحضارات، وتشارك الأفكار والثقافات، ودعوى الإنسانية الواحدة والمركب الواحد!.

وأحسب أن القارى الكريم يخالنا قد بنينا قصورًا من رمال فى الواجبات السبعة السابقة أو أننا حلقنا بأجنحة الخيال فإذا الواقع بخلاف ذلك، أو أننا قدمنا مثاليات قلّ أن تجد مَنْ يتمثلها إلا فى التصورات والرؤى.

وأجدنى مختلفًا معك فيما يمكن أن تكون قد خلصت إليه، أو ربما يقذف فى روعك بشىء من ذلك، فالواجبات السابقة ليست مثاليات مفرطة فى الخيال، ولكنها رصد أمين فى توصيف حضارتنا، وبيان دورنا تجاهها من خلال مراحل – يمكن استنباطها منها – تبدأ بالتعرف على أسسها ومقوماتها والوعى بها، وبالحضارات الأخرى[2]، ويتزامن مع ذلك إيمان تميز هذه الحضارة وقوتها وفاعليتها والوعى بالذات المسلمة، والانتقال من الاستهلاك إلى الإنتاج، وتوجيه العناية للإرث الثقافى لهذه الأمة.

- وهذه المرحلة هى مرحلة تعرف ويقين ووعى وحركة وعلم وتبصر، وقبول ورفض.
- ثم تأتى مرحلة أخرى لدراسة أعمق لأسباب تخلفنا، وتركنا للريادة والسيادة.
- ثم تأتى مرحلة أخيرة نراجع فيها ذاتنا، ونرصد مجالات استقلالنا، وكيفية التعامل مع الحضارات الأخرى، وهذه المرحلة هى انطلاق لمرحلة أرحب، ونعتز فيها بهذه الحضارة، ونسعى للإضافة والتجديد والإبداع.

---

(١) جميل عبدالله المصرى: المرجع السابق، ص ٥٠.

(٢) دراسة الحضارة الأخرى المقصود به هنا، التعرف على الجانب الخير فيها، ورصد ما يمكن الإفادة منه فضلا عن نوع آخر من الدراسة، يستهدف تجنب نواحى الشر فيها، وذلك فى المجالات الإنسانية والمعنوية، اتساقًا مع الفلسفة الصحابية فى ذلك التى نرصدها فى قول حذيفة ﷺ: " كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركنى" .. إلى غير ذلك من المأثورات التى تعضد ذلك.

تعقيب وتعليق:

ناقشنا فى هذا الفصل (مضامين الحضارة الإسلامية)، عدة قضايا، تثار فى قضية الحضارة، وقد رأينا أن نقدم ملخصًا له؛ تيسيرًا للقارئ؛ وعونًا له على التقاط الخطوط العريضة للفصل.

ففى المبحث الأول: تناولنا قضية الحضارة، وأبرزنا أنها من أهم قضايا العصر، وعرفنا بالحضارة وجوانبها وعناصر ثبوتها وخلودها، وكيفية تحقيق التوازن بين جانبيها المادى والمعنوى، ثم عرفنا بالحضارة الإسلامية ومرتكزات القوة فيها، وفاعلية الإنسان المسلم فى صنعها والحفاظ عليها، وكان لزامًا أن نفرق بين الإسلام كدين، وبين الحضارة الإسلامية كمضمون وناتج، وخلصنا من ذلك إلى تحديد دقيق لمصطلح (الحضارة الإسلامية) وإلى بيان للجانب العقائدى الربانى فى هذه الحضارة، ومعنى رابطة العقيدة ووحدتها.

وفى المبحث الثانى: عرضنا لدور المسلمين فى صنع الحضارة، وأن الإسلام أرسى أسسًا لحضارة راقية، انطلق بها المسلمون حاملين أنوارها ومشاعلها لكل أرجاء العالم، وبينا كيف أقبل الغرب على امتلاك رصيد حضارتنا من العلوم الطبيعية وعلوم التمدن المدنى فى مراحل تاريخية سابقة، ورغم ذلك فإنهم تحفظوا على أخذ الجانب الإنسانى والقيمى فى حضارتنا؛ حيث رفضوا أبرز الخصائص الإسلامية وطابعها الدينى.

أما المبحث الثالث: فقد حللنا فيه تطور الحضارة الإسلامية، وتفاعلها مع الحضارات الأخرى، وموقفنا من تلك الحضارات، إما بالرفض المطلق أو التبعية والذوبان أو التوسط بين ذلك. وهذه المواقف الثلاثة لها منطلقاتها ودوافعها مما عرضنا له بالتفصيل، وخلصنا منه إلى أن المسلمين لا يقبلون تغريب الحضارة، وأن الاستعمار لم يستطع أن يذيب هذه الحضارة رغم ظواهر الطمس.

وفى المبحث الرابع: قدمنا بعض مأثورات عن السلف تعكس جانب فهمهم لحضاراتهم ورسالتهم، واستيعابهم لمضامين البناء والتواصل وعوامل الدفع والتقدم فى حضاراتهم، ومن ذلك بعض عبارات لربعى بن عامر ووصف رسل المقوقس للمسلمين، والفاروق عمر، وأبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم إلى غير ذلك مما توقفنا معه ورصدنا الروح الإنسانية والفهم الرشيد وتمثل القيم الإسلامية فى كل ذلك.

وأما المبحث الخامس: فقد تناولنا فيه عدة ركائز أساسية للحضارة الإسلامية، وذلك فى الربانية، والإخاء، والشمول، والمنهجية العلمية والتطبيق، مع بسط القول فى

(التطبيق) وصداه فى الحضارة الإسلامية، وعناصر التلاقى بين الإيمان والتطبيق. وخشية أعداء الإسلام أن تتحول علاقة المسلمين بدينهم إلى التزام وعمل وسلوك ومنهج.

وفى المبحث السادس: عرضنا لخصائص الحضارة الإسلامية، التى بنيت على التوحيد، والتوازن، والوسطية، وفريضة الجهاد، ونصر الله تعالى. ثم رصد خصائص أخرى مثل الشمول، والخلود، وموافقة الفطرة، ورفع الحرج، والتيسير.

أما المبحث السابع: فقد بينا فيه طبيعة هذه الحضارة، وفصلنا القول عن مبادئها وأسسها والتى رصدناها – اجتهادًا – فى ثلاثة عشر مبدأ، ابتدأ من التوجه فيها لله تعالى وصفاء العقيدة، وبيان نظرتها للدنيا وللآخرة، وروح الالتزام فيها، وربانية هذا المجتمع، وقيام دينه على الثبات والكمال، ونبوعه من قوة ذاتية كامنة فيه. ومرورًا بالوحدة كعنوان عظيم فى توازنها ورسوخها. وانتهاءً بإقرار عدم الوساطة فى الإسلام، والإعلاء من شأن العقل، والتعادل بين الفرد والمجتمع، ووضع ضوابط للثواب والعقاب ومواجهة الجريمة. ثم عقبنا على هذه المبادئ، ورصدنا الجانب التطبيقى لكل واحد منها.

وفى المبحث الثامن: تناولنا مسلمات رئيسة فى حضارة هذا الدين، منها أنه معيار لا يسع غيره، وأنه يقدم صيغة فريدة للعقلية العلمية الشاملة، ولتفجير طاقات الإنسان وللعدل والشورى وللحرية الإنسانية وللحق الخالص، وعناصر التميز فى كل ذلك، ثم قدمنا مسلمات مقابلة أخرى فى مجال عواقب تركه والتخلى عنه وعدم الأخذ به.

وفى المبحث التاسع وا خير: خلصنا إلى الإجابة عن سؤال جوهرى هو: ما واجبنا نحو حضارتنا؟ فذكرنا أن قناعات ينبغى أن تكون مُحركة لنا بأننا أصحاب رسالة، وأننا أمة ذات حضارة. وأن المسلمين بامتلاكهم لمنهج ربانى لديهم ما يحقق لهم السيادة والتفوق. أما الواجبات فقد حصرناها فى ضرورة التعرف على أسسها ومقوماتها، والإيمان بفاعليتها ومصدرها، والوعى بالذات المسلمة، وعدم الانبهار بالمظاهر المادية، والعناية بالجانب الثقافى والمعرفى فيها، ومراجعة الذات، والبحث عن أسس الاستقلال الحضارى.

وبعد أن ناقشنا قضية الحضارة الإسلامية، من حيث المضامين والأسس والركائز والخصائص والمبادئ والمقومات والمسلمات، وعناصر التطور والقوة والعطاء فيها.

فإننا سنعرض لعناصر البعث فى هذه الحضارة وذلك من خلال المنظور القيمى والأخلاقى لها فى الفصل التالى.